

تأليف
محمود شاكر

المكتب الإسلامي



إلى الدعاة

الجزء الأول





تأليف

محمود شاكر

الجزء الأول

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

مقدِّمة

الحمـد لله رب العـالمين والصـلاة والسـلام على محمـد بن عبد الله رسـول الله، وخاتم الأنبيـاء والمرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعـد:

فـإن الإسلام قـد جاء لهـداية البشـر، وإخراجهـم من عبـادة العبيـد إلى عبـادة الله، ومن ضيق الـدنيـا إلى سعـة الآخرة، ومن الخواء الفكري إلى الراحة النفسية والطمأنينـة الفكرية، ولكن الإسـلام دين لا يقوم بهـذه المُهمّة إلّا على يد أتباعه الذين يُؤمنون به ويعملون على تبليغه للبشر، وقـد قـام المسلمون في العصـر الأول بهذه المُهمّـة الملقاة على عـاتقهم فانتشـر الإسـلام، وسعـد الـذين اعتنقـوه فكـريـاً، ونفسياً، ومادياً.

وخلف أولئـك الـرعيـل الأول خلف أهملوا واجبهم، وتركوا دورهم، فتـوقّف المدّ الإسـلامي، وانسحب الامتداد الحضاري من مواقعه التي كان فيها، وهذا ما أطمع الأعداء

في ذلـك الركـود فتحرّكـوا وحقّقوا بعض النصـر الذي تلتـه انتصارات لازمتها هزائم تعاقبت إثـر هزائم على المسلمين، فضعُف أمـرهم واستبـدّ بهم خصمهم الـذي نشـر أفكـاره، وولّى أنصاره، وبثّ عيونـه، وجثم على صدور السكـان في هـذه البـلاد، وعمـل على إفسـاد عقـائـدهم فنشـر الـرذيلة وتركهم يتمرّغون فيها، وشدّ إليه من استهواه ذلك، فكان له أتباع جعلهم سدنةً يُحارب بهم، ويحميهم ليزدادوا به تعلّقـاً، فكانت الهزائم النفسية، وكان الأعوان للأعداء، وكان يرمي بالطُّعم فيُسـرع الجياع فيصطاد منهم من يشاء، ويُلقي منهم من لا يريد لعدم إمكاناته، ولعدم الحاجة إليه إذ أخذ من هو أكثر منه دسماً لإنجاح مخـططاته، وكـان جيلنا الـذي ورث التبعـات، وحـار في الأمـر، فتشنّـج الكثيـر منـه، وكـانت التصرّفات غير المقبولة من جلافة الأصحّاء، واتّباع الهوى من مرضى النفوس، المرضى الذين انساقوا وراء المنتصـرين، وراء الطُّعم ليجنوا بعض ما يشتهون.

وجاء الجيل الجـديد من أعـداء المسلمين ورأوا هذه التصـرّفات من جيلنـا فحكموا علينـا من خلالهـا، وسمعـوا دعـوتنا من أفـواهنـا فحكمـوا عليهـا من سلوكنـا، فـأصبح الحكم على الإسلام والمسلمين مُسبقاً عندهم، فإذا سمعوا جديداً أعـرضوا عنـه، وإذا دُعوا أصمّـوا آذانهم، وإذا كتبوا

دوّنوا من خلال ما ثبت في أذهانهم، ثم ربّوا أبناءهم على ما رسخ في أعماق نفوسهم.

وهذا التصرّف من الأعداء بدلاً من أن نُقابله بتصحيح المفاهيم عندهم عنا وعن ديننا نقوم ـ مع الأسف ـ بالتأكيد لهم عما في نفوسهم جهلاً وحقداً، جهلاً بالحقيقة، وحقداً لما في أفئدتهم من غيظٍ للإسلام تلقّوه من قساوستهم ومن تاريخهم الذي دوّنه لهم الرهبان حسداً من عند أنفسهم وتناقلته الأجيال.

وأُريد اليوم أن أُوضّح لهؤلاء ولأولئك، هؤلاء الرجال من المسلمين الحريصين على دينهم العاملين في سبيل انتشاره وتطبيق تعاليمه، أُذكّر هؤلاء ببعض النقاط ليكون سلوكهم مُوافقاً لما يدعون إليه كي يتعرّف الذين يُريدون الحقّ، ويرغبون في السعادة للبشرية، يتعرّفون على ما يبغون من واقع الدعاة لا من الكتب والنظريات فيرون في كل داعيةٍ حقّاً مُتمثّلاً في شخصية صاحبه، كما أريد أن أوضّح للبعيدين عن الإسلام أن سلوك المسلمين اليوم لا يُمثّل فعلاً حقيقة دينهم وما جاء به لإنقاذ البشر مما يُعانون، وما هذا السلوك إلا نتيجة تخلّفهم أولاً وبعدهم عن عقيدتهم، وبسبب ما فعل بهم أعداؤهم من ضغطٍ

وإذلالٍ وما أظهروه من تعصّبٍ وحقدٍ فكان ردّ الفعل وكان بعض هذا السلوك.

وإني لأعترف أن هذه المهمة التي أقوم بها والسبيل التي أسلكها مهمة صعبة وطريق شاقة، وإن كانت سهلة لوضوحها وضوئها الجليّ، وما عليّ إلاّ أن أستعين بالله وأتوكّل عليه فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

* * *

نَظرَةُ المُسْلِمِينَ إلى غَيْرِهِم

ينظر المسلمون إلى غيرهم نظرةً ملؤها الشفقة لما هم عليه من الضلالـة، ومن البعد عن السعـادة، بابتعـادهم عن منهج الله وعمّا يصلُح لهم في الحياة وعمّا فطرهم الله عليه، فهـو الذي خلقهم، وهـو العـالم الـوحيـد بـطبيعتهم، وهـو المتفـرّد بمعرفـة ما يحتـاجـون إليـه، وهـو الـذي خلق لهم الأرض ذلـولاً لينعمـوا بهـا، ويستثـمـروهـا، وخلق لهم من أنفسهم أزواجاً ليسكنوا إليهـا، وأنزل إليهم منهجـاً ودستوراً للحياة ليسيروا عليه كي يتذوّقوا طعم العيش والهناءة.

وينـظر المسلمون إلى غيـرهم نـظرةً ملؤهـا الـرحمـة لما يتحسّسون به من العذاب الأليم الذي يتوعّدهم، وجهنّم التي تترصّدهم، والشقاء المقبلون عليه في الآخـرة، والذي سيخلدون فيـه، فلا هم يمـوتـون فيستـريحـون، ولا يُخفّف عنهم العذاب فينتظرون الراحة.

والشفقة والرحمـة اللتان يشعـر بهما المسلمـون تجاه

الآخــرين تـدعــوانهم إلى العمــل لهــدايتهم ولإنقــاذهم مما ينتظرهم من عذابٍ، ولا تكون الهداية ولا يكـون الإنقاذ إلّا بالدعوة واللين فيها، واللطف، والتحبّب، والبعد عن ردّ الفعـل فيما إذا حـدث إعراض، أو إحجـام، أو إساءة مهمـا بلغت، أو تمادٍ في الغيّ مهما وصـل إليه، ولنـأخذ هـذا من نبـيّ هذه الأمة عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من قومه أثنـاء دعـوتهم إلى الإسلام كثيـراً من العنت والإعـراض والجفـوة والإحجام، فكان يقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يدع عليهم، ولم ييأس، ولم يمـلّ بل استمـرّ يدعـوهم ويتحمّل.

وبدأ الأذى يلحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم، من قـومه المعـرضين، وينـال أصحـابـه من أهليهم وذويهم المنكـرين، فلم يحـدث ردّ فعــلٍ من المسلمين ولم يتغيّـر سلوك رسـول الله، عليه أفضـل الصلاة والسـلام، بـل كـان ينظر إلى الجاهلين من قومه فتأخذه الشفقة عليهم، بل على نسلهم من بعـدهم فيمـا إذا استمـرّوا على مـا كــان عليـه آبــاؤهم، فيقـول: لعلّه يخــرج من أصـلابهم من يقــول: «لا إلـه إلّا الله».

ويُخـاطب الله رسولـه فيقول لـه: ﴿وإنّك لعلى خلقٍ

عظيمٍ﴾[1]، وخاطبه: **﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم، ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك. . . ﴾**[2]، بهذه الأخلاق وبهذا السلوك استطاع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يُؤلّف القلوب، وأن يجمع حوله الناس، وأن يدعوهم إلى الإسلام، وأن يُسلموا، وأن يُؤمنوا، وأن ينقلبوا إلى دعاةٍ جددٍ، وإلى مُجاهدين في سبيل الله للعمل على نشر هذا الدين.

وقام بالدور نفسه أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأقبل الناس على الإسلام، ووجدوا فيه راحتهم وسعادتهم، وانتشر الإسلام وساد أجزاء واسعةً، وما وصل المسلمون يومذاك إلى بقعة إلاّ وانتشر الإسلام فيها نتيجة سلوك المسلمين وأخلاقهم ونظرة الرحمة والشفقة التي ينظرونها إلى غيرهم، ورغبتهم في إنقاذهم مما يُعانون، وتخليصهم مما هم قادمون عليه من العذاب. ونُلاحظ إقبال السكان على الدين الجديد في مختلف المناطق التي دخلها فاتحاً دون ضغطٍ ومن غير إكراه رغبةً في خُلق أصحابه وتسامحهم، وإيماناً بتعاليمه ومبادئه، وتسليماً لنظامه، واستمرّ هذا عدّة قرونٍ كان الإسلام قد غطّى ساحةً واسعةً

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

من الأرض، منها المناطق التي دخلها المسلمون فاتحين وأقبل سكانها على الإسلام، ومنها المناطق التي انطلق إليها المسلمون تُجّاراً وأسلم أبناؤها لما رأوا في سلوك القادمين إليهم والمرتحلين إلى بلادهم.

وخلف أولئك المسلمين الأوائل خلفٌ ركنوا إلى الدنيا واستهواهم نعيمها، وأخلدوا إلى الأرض، وتراخوا في العمل، وظنّوا أن ما جاءهم من سبيٍ ورقيقٍ يُغني عنهم، فتركوا لهم الأعمال وقعدوا ونسوا أنهم ملك للأمة جميعها، وليسوا ملك أنفسهم، وهذا ما أخّر ركب العمل، وأبطأ من تقدّم الحضارة، وأثار عليهم العبيد، وحرّك عليهم الحاقدين من الشعوب الأخرى الذين لم يدخلوا في الإسلام، أو الذين أظهروه ولم يُؤمنوا به، كما أنهم تركوا الجهاد فنشط أعداؤهم الذين كانوا في فزعٍ مستمرٍ ينتظرون طلائع المسلمين لتصل إليهم، وتجوس ديارهم.

لما توقّف المسلمون عن الجهاد وجد أعداؤهم راحةً ووقتاً للاستعداد فلم يلبث أمرهم أن قوي، وحتى ترتفع معنويات شعوبهم أشعلوا فيهم نار الحقد، وأعطوهم صفةً عن المسلمين ليست صحيحةً، وكذبوا على شعوبهم عن المسلمين حتى صارت عندهم صورة عن المسلمين تُغاير الحقيقة فاستعدّ الأعداء ونهضوا، ولا تزال ـ مع

الأسف ـ هـذه الأفكـار منتشـرةً عنـد كثيـرٍ من الشعـوب النصـرانية دون تحـرٍّ عن الحقيقـة أو دراسـةٍ للمـوضـوع في الوقت الذي تدّعي فيه بعض هـذه الشعوب أنهـا موضـوعية في الدراسة وتبحث دائماً عن الحق وهذا مـا يجعلنا نقـول: إن الفكـرة عن المسلمين لـدى النصـارى محكـوم عليهـا مُسبقـاً، وهي سيئة جـداً، وفي هـذا الـوقت بـالـذات كـان المسلمون يتراجعون عن مواقعهم الحضارية والسياسية وعن مراكزهم القتالية، وينصرف بعضهم إلى بعضٍ لينال كل من الآخر بعد أن تخلّوا عن مُهمّتهم الأساسية في الحيـاة، وهي الجهاد للأخذ بيد الناس، وإخراجهم مما هم فيه من الـظلم والاستعباد والظلمات.

قـوي أمـر الأعــداء، وزاد ضعف المسلمين، وأخـذ النصـارى يُخطّطون ويُـوحّـدون جهـودهم في الـوقت الـذي تفرّق فيه المسلمون وكاد بعضهم لبعضٍ حتى كان منهم في الأنـدلس من استعان بـالـطاغيـة ضـد أهله من ذوي النفـوذ والسلطان وضـدّ إخوانـه وأبناء عقيـدته، ونتيجـةً لهـذا فقـد استطاع الأوروبيون النصارى السيطرة على بعض أجـزاء من بـلاد المسلمين ثم امتـدّ تـوسّعهم، وزادت سيـطرتهم حتى شملت معـظم الأمصار الإسـلامية، وعنـدما تمّ لهم التحكّم أخـذوا يعملون الوسـائل كلهـا لإذلال المسلمين بـإفقـارهم

وتركهم تحت ركام المرض والجهل، فاغتصبوا أموالهم، وأخذوا أملاكهم، ووضعوا يدهم على أراضيهم، ووقفوا في وجه مدارسهم ومُؤسساتهم التعليمية، وتركوا الأمراض تفتك بهم إضافةً إلى الضغط والتعدّي والازدراء كل ذلك في سبيل الإذلال حقداً عليهم، وليسهل عليهم إخضاعهم، والبقاء في بلادهم سادةً مُتحكّمين، وكان الاستعمار الصليبي الذي جثم في بعض الأمصار قروناً على صدور المسلمين.

أخذ الاستعمار يسعى للشرّ أن ينتشر وللخير أن ينحصر، فيشيع الفساد، ويضغط على المسلمين فنشأ نتيجة ذلك فئتان في المجتمع الإسلامي أولاهما تمسّكت بعقيدتها، وتحمّلت الضغط، وقاست العذاب، وصبرت مُحتسبةً، غير أنه قد تبدّلت نفسيتها وأصبحت تحسّ بالكراهية للمستعمرين ومن والاهم من أبناء جلدتهم، وتشعر بالحقد عليهم، وأرادت الاستعلاء بإيمانها فكانت عندها تلك الجلافة، وتولّد عن ذلك عدم ممارسةٍ صحيحةٍ للأخلاق الإسلامية، أما الفئة الثانية، فقد سايرت المستعمر وأخذت من عاداته وقلّدته في أفعاله وسلوكه فأيّدها، وقدّمها، ودعمها فغدت جزءاً من أتباعه وأصبحت حياتها جزءاً من حضارته.

وقام الصراع بين الفئتين، وبدأت الاتهامات تنطلق من الجانبين، هؤلاء يتّهمون أولئك بالانحراف والمروق من الدين وتقليد الأعداء والسير على طريقتهم والافتتان بهم، وأولئك يتّهمون هؤلاء بالرجعية والتخلّف والمحافظة على البالي من المفاهيم والقديم من العادات، وقبول الخرافات، وأنّ التمسّك بهذا لن يكون إلّا سبباً في وقف عجلة التقدّم وعدم التحضّر، وقد سرّ الأعداء لهذا الصراع وأخذوا يزيدون في إشعال ناره، وانحازوا هم إلى من قلّدهم فدعموهم وسلّطوهم على الآخرين، وانسحبوا هم من الميدان تاركين الصراع يتأجّج في مستعمراتهم التي كانوا يُسيطرون عليها، ومن هنا ترسّخت هذه النظرة عند المسلمين ضدّ الأعداء أو كردّ فعلٍ لما قاموا به وهذه النظرة ملؤها الحقد والكراهية وعدم الرغبة بالخير لهم وهذا ما يُخالف نظرة الإسلام الصحيحة للآخرين ومن بينهم الأعداء مهما بلغت بهم درجة العداوة.

وربما جاءت هذه النظرة أو زاد فيها تلك الحياة التي يحياها أولئك الماديون والتي يبتعدون فيها عن منهج الله، ويُضلّون أنفسهم ويُفسدون الناس معهم، ويُحاربون الإسلام ويُظاهرون عليه.

ونستطيع أن نصل إلى أن نظرة المسلمين غير

الصحيحة إلى المجتمعات الأخرى إنما جاءت من تصرّف تلك المجتمعات في حقدهم وحربهم وتصرّفهم وكان ردّ الفعل من المسلمين، غير أن الإسلام لا يقرّ ردّ الفعل هذا لذا فإننا ندعو المسلمين المخلصين الصادقين إلى نظرة العطف والرحمة والشفقة للمجتمعات الضالة كي تتقبّل منهم الدعوة، فينقذونها مما تُعاني، ويكون المسلمون قد أدّوا مُهمّتهم المُناطة بهم في هداية البشر، ويحصلون على الأجر العظيم، وتكون لهم الجنات العلا.

* * *

نَظرَةُ المُسْلمين إلى المنْحَرفينَ مِنْهُم

إن المصيبة التي نزلت بالمسلمين من احتلال بلادهم، ونهب أملاكهم، ووضع اليد على أراضيهم، والضغط عليهم، ومراقبة تحركاتهم، وأخذ أوقاف المؤسسات الخيرية والمراكز التعليمية لإزالتها، وإبقاء المسلمين في حالةٍ من الجهل، وهذا الذي جاء كله من أعدائهم المستعمرين، قد ولّد هذا عندهم تلك النظرة لغيرهم التي تحدّثنا عنها فيما سبق. وإن هذا سيؤدّي من غير شكٍ إلى نظرةٍ مماثلةٍ إلى أولئك الذين يعيشون معهم من أبناء جلدتهم، وهم يرون منهم تأييد المستعمر، إن لم يكن سياسياً، فهو في اتّباع منهجه، وتقبّل أفكاره، وتقليد عاداته، ولو ادّعى هؤلاء المُؤيّدون أنهم يُحاربون الاستعمار، ويعملون في سبيل بلادهم، ولو أعطوا أنفسهم اسم الوطنية، ونعتوا أنصارهم بالتقدّمية، لأن الحرب القائمة بيننا وبين الأعداء إنما هي حرب فكرية، وصراع حضاري، وليست حرباً عسكريةً إلّا في حالاتٍ نادرةٍ، فمن

اتّبع فكراً معيناً كان من أتباع حملته، ألا نرى أن الذين يُؤيّدون الرأسمالية ويجدون فيها نظاماً أفضل للبشرية يُعدّون من أنصارها، ويرى فيهم الشيوعيون أعداءً لهم ولنظامهم، وكذلك يجد الرأسماليون عداوةً لهم من الذين يُؤيّدون الشيوعية، ومن هنا فإن المسلمين يرون الذين يُؤيّدون أي نظام غير نظام الإسلام أعداءً لهم، ومن أتباع النظام الذي يُؤيّدونه أنهم قد ابتعدوا عن دينهم وانحرفوا عنه، ويجدون في الذين يسيرون على منهجٍ يُخالف منهج الإسلام أنهم يُظاهرون خصومنا علينا ولو ادّعوا أنهم من المسلمين، ونعتوا أنفسهم بالوطنية، وأن الذين يُقلّدون اليهود والنصارى لا يختلفون عنهم، وهم بجانبهم ويأخذون مواقف ضدّ الإسلام، ولو حسبوا أنفسهم من أهله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعضٍ، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾[1]. ويزيد الأمر خطورةً هنا أنهم داخل المجتمع المسلم حيث يُمكنهم الهدم والتخريب بصورةٍ فعّالةٍ أكثر بكثيرٍ من الأعداء الذين يُعلنون الحرب والهجوم على المسلمين من خارج مجتمعهم، ألا ترى أن اللّص الذي يعيش في داخل البيت أو يعرف مداخله ومخارجه لصلته

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

بأحد أفراد المنزل هو أقدر على سرقة الدار من اللّص الذي يدخلها أول مرةٍ، ولا يعرف توزّع غُرفها، ومداخل حُجرها، ولـذا فإن اللصـوص المحترفين يُـراقبون المنـزل ويُحاولـون معرفته تمام المعرفة، ويتربّصون بأهله ليعلموا وقت نومهم، واستيقـاظهم، وخـروجهم وذلـك كله قبـل اقتحـام البيت لسـرقته، وهكـذا فالعـدو الداخلي أشـدّ خـطورةً بكثيـرٍ من العدو الخارجي الذي لا يعرف شيئاً عنك ولا عن دارك، إلاّ إذا أرشده العدو الداخلي وهنا تكـون الطامـة عندمـا يتعاون العدو الداخلي والعدو الخارجي ويكـون الأول دليلاً للثـاني وسنداً ودعامةً له.

لا شك أن هؤلاء المنحرفين الذين يعيشون بيننا لعلى درجةٍ كبيرةٍ من الخطورة، وهم أعداء يجب قتالهم قبل قتال الأعـداء الخارجين، ويجب التخلّص منهم قبـل اللقـاء مـع الخصوم الذين هم في الخارج، هذا عندما يكون الأمر لنا، وعندما يكون الحكم للإسـلام، ولكن عندمـا لا يكون هـذا ولا ذاك، وهو الواقـع الذي نعيش فيـه، عندهـا يجب علينا اتخـاذ الحكمة، وهي واجبـة علينا اتخـاذها في كـل وقتٍ، وتقتضي أن نفكّـر في أمـرٍ يجمعنـا مـع هؤلاء المنحـرفين، لنجعـل منه جسـراً نصـل إليهم عن طـريقـه، ونُحكم هـذه الصلة، ونبدأ العمل عن طريقها وهنـا تكون مُهمّـة الداعيـة،

وهنا تبدو إمكاناته وحكمته، وهنا يظهر إخلاصه وصدقه.

نجد أن بيننا وبين هؤلاء المنحرفين شعرةً دقيقةً لا تزال تربط بعضنا مع بعضٍ ألا وهي انتماؤهم الاسمي إلى الإسلام، ويجب على الداعية أن يُثير فيهم عاطفة هذا الانتماء، ويُذكّي فيهم روح الماضي الذي يفخرون به، ويبدأ بتبيان أوامر الإسلام الأساسية ونواهيه وضرورة العمل بها، ويجب ألا تكون هذه في لقاءٍ واحدٍ وعلى دفعةٍ واحدةٍ، وإنما على لقاءاتٍ مُتكررةٍ وبجُرعاتٍ مُتتاليةٍ ولا مانع من طول المدة وتعدّد الأساليب، وهذه المدة وإن طالت إلّا أنها تُكسب الداعية خبرةً في العمل وتُعطيه مراناً على الحديث والانتقال بالمستمع من نقطةٍ إلى أخرى حسبما يرى في ذلك ضرورةً.

ولكننا ــ مع الأسف ــ نجد غير ذلك، نرى الداعية إذ التقى بأحد هؤلاء المنحرفين أو بمجموعةٍ منهم يتعالى عليهم ويتكبّر، ويُظهر نوعاً من الشموخ يختلف عما اعتاد الناس أن يروه من المتغطرسين، وهذا ما يجعل الآخرين يُنكرون عليه أشدّ الإنكار بل وينفرون منه، وإذا تكلّم تحدّث بتشنّجٍ وتعالٍ، وأعطى عباراتٍ قاسيةٍ، ويظنّ أنهم قد فهموها، ويرى أنه من الواجب عليهم أن يستمعوا إليه بحرارةٍ، ويتقبّلون ما يقوله تماماً، بل وعليهم أن يُطبّقوا كل

حرفٍ تلفّظ به ما داموا مسلمين، وهذا ما يزيدهم بعداً ونفوراً من هذا الداعية، بل ويزيد الأمر صعوبةً أن المُنحرفين بل والمُقصّرين أصبحوا يرون كل الملتزمين بالإسلام هكذا، لجهلهم وعدم معرفتهم، بل إننا من الأساس أسميناهم بالمنحرفين، وهكذا انعزل المسلمون في مجتمعهم، وابتعد عنهم العامة الذين لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، وأُطلق عليهم لقب الجلافة، والتكبّر، ونُعتوا بصفاتٍ لا تليق، ومنها صفة بعض الحيوانات الصبورة على التعب.

ولما كان المجتمع يكثر فيه المنحرفون، ويغصّ بالعامة والمقصّرين لذا فقد برز فيه هؤلاء القلّة ممن حصلوا على شيءٍ من العلم، وسمّوا أنفسهم دُعاةً، وربما تطوّرت الحالة إلى درجةٍ ثانيةٍ إذ جعلوا لهم حلقات وأخذوا في الوعظ والدرس فأجلّهم التلامذة، وعظّمهم الأتباع، فظنّوا بأنفسهم كذلك، وأصبحوا يُريدون من الناس جميعاً أن يُعاملوهم بهذه المعاملة من الاحترام والتقدير، فكانوا يُكلّمون الناس بلحاهم، ويخاطبونهم بعمائمهم، ويتحدّثون إلى العامة بمظهرهم، فحصلوا على الازدراء أكثر مما حقّقوا شيئاً من الدعوة.

ولكن هناك حالةً أفضل من هذا أكثر وعياً وإدراكاً، وأحسن صلةً واجتماعاً، وهم الشباب الذين انضووا في

صفوف الجماعات الإسلامية الحركية، التي تُتابع أحياناً ما يُحيط بها، وتتفاعل مع المجتمعات، وتتعامل مع الفكر وما تقتضيه الظروف إلى حدٍّ يختلف بين جماعةٍ وأخرى، غير أن هؤلاء الشباب قد ظنّوا أنفسهم أنهم بانتمائهم هذا قد حصلوا على بطاقات دخول الجنة التي أغلقت أبوابها أمام غيرهم فتعصّبوا من أجل ذلك لحركتهم، وأبعدوا كل من سواهم من المسلمين عن طريق الخير الذي حصروه بأنفسهم فأورثوا كرهاً لهم ولجماعتهم، وأبعدوا المسلمين على أن يُنظّموا صفوفهم أو ينضمّوا إلى الجماعات القائمة فبقوا لذلك مُشتتين يتلاعب بهم الطغاة كالريشة في الهواء.
وإذا كان بعضهم على درجةٍ من الخلق والإخلاص والتديّن والاستقامة إلّا أنه قد وضع على عينيه عصابةً سوداء فلا يرى إلّا ما تمليه حركته، ولا يسمع إلّا منها، فلا يرى الحقّ إلّا مع رجالها، فيقول: عندنا علماء يستطيعون التميز، ويعرفون العلم فلا يمكن أن يُخطئوا، وبذا أعطاهم صفة العصمة التي لا تكون إلّا للأنبياء، وربما لم يُفكّر في هذا أبداً لأنه أعطى جماعته حقّ التفكير عنه، والتصرّف دونه واستسلم هذا، وكما يُحارب الإسلام العصبيات على مختلف أنواعها، ومنها هذه العصبية، وكذلك فإن المجتمع قد حاربها، ولذا فقد ابتعد عنها.

نَظرَة المُسْلِمِينَ إلى المُسْلِمين

إن سيطرة المستعمر الصليبي على أكثر الأمصار الإسلامية قد ولّد الضعف عند المسلمين، وكان من المفروض أن يُولّد عندهم ردّ الفعل وروح المقاومة والدعوة إلى الجهاد غير أن إهمالهم أمر دينهم قد أوجد عندهم ما حدث. وإن استيلاء المستعمر على أراضيهم، ونهب أملاكهم، وابتزاز أموالهم قد أفقرهم، وإن وضع يده على مُؤسساتهم ومدارسهم قد جعلهم يسيرون في طريق الجهل، وإن الضعف، والفقر، والجهل، والضغط قد أورثهم الذلّ، ونشأت عند كثيرٍ منهم الروح الانهزامية، وإن كان بعضهم لم يشعر بذلك، وهو واقع فيها، ولا يعترف بعضهم الآخر بها، وهو يغوص بها من غير معرفةٍ للسباحة والعوم.

وانطلق كثير منهم وراء الحضارة المادية يُريد أن يتمتّع بما فيها ـ حسب رأيه ـ من شهواتٍ، وملذّاتٍ، ومفاتن. ومن لا يزال على شيءٍ من الحياء، وحبّ الخير

يدّعي أنه يُريد السير على منوال الحضارة المادية، وتتبّع آثارها شبراً بشبرٍ كي تنهض أمته كما نهضت أمم تلك الحضارة، لذا فهو يلهث وراءها دون أن يُدرك شيئاً لعدم معرفة الواقع، والفهم الخاطىء، وعدم سلوك الطريق الصحيح، إضافةً إلى ما في نفسه من أمورٍ ثانيةٍ لا يعلمها إلّا الله.

وانطلق كثير إلى بلدان الحضارة المادية ينهلون من علمها ليتخلّصوا من جهلهم ـ حسب رأيهم ـ فمنهم من فُتن علمياً، ومنهم من فُتن اجتماعياً بهرَه الجنس، وأعماه الفساد، وعاد الفريقان وكلاهما مرتبط بالبلدان التي سافر إليها، ونسي وطنه وأهله، وعاداته، وثقافته، وعلماءه، والأخلاق فيه، والعقيدة التي قام المجتمع عليها، والتي كان لها الأثر الكبير في بناء الحضارة العالمية، وإخراج الناس إلى الخير والأخذ بأيديهم مما كانوا يُعانون من الظلم والجور، واستبعاد الناس للناس. ومنهم من حافظ على دينه وخلقه، ويجب ألا ننسى هؤلاء أبداً.

وانطلق أناس يبحثون عن مصدرٍ للرزق عند أولئك يبتغون عندهم الوسيلة فجعلوهم عيوناً لهم، وكلّفوهم بمُهمّات، فكانوا عبيداً لهم باعوا أنفسهم، وانساحوا في أرض الله يُؤدّون مهماتهم.

وسـار أناس في ركـاب السلطان الذي أقـامه الأعـداء يبتغون عنده العزّة بعد أن ذاقوا الذلّ، ويـطلبون الـرزق بعد أن أحسّوا بمرارة الفقر، فكانوا مُقلّدين مُقلّدٍ، وأتباع عبيـدٍ، وأعوان أجراء، همّهم المال، وغايتهم المصلحة، ومُبتغاهم المنصب.

وبقيت جماعات نظرت بعين الواقع فعرفت الحقيقة، واستعلت بإيمانها، وتحمّلت الفقر، وصبرت عليه، وقـاست من سهـام الأعداء وأتبـاعهم، وأيقنت أن العزّة لله ولـرسولـه وللمؤمنين، وصمدت أمام القوى الباغيـة، ولم تلن قناتهـا، وكانت هذه الجماعات عمـاد الأمة الحقيقي المُحـافظ على شخصيتها وكيانها، والثابت أمام أعاصير الأعداء، والمنـافح الحقيقي عن العقيدة.

ومع الأيام عانت هذه الجماعات الكثير، وقسا عليهـا الزمن، فانصرف بعضها إلى العمل يكدّون من أجـل الرزق في الـزراعة، وفي الصنـاعة، وفي التجـارة، وكانـوا عـامـة المجتمع وخياره، والعنصر المنتج فيـه، واتّجه بعضهـا نحو العلم الشـرعي يـطلبـه، يجـد فيـه راحـة نفسـه ومتعتـه في الظروف القاسية التي يحياها، وكان هؤلاء مرجع النـاس في الفتوى، والسؤال، والإمامة، والعلم.

بقيت هـذه الجمـاعـات قـذىً في أعين الأعـداء، فحاولوا أن يُحطّموهـا فلم يتمكّنوا، وعملوا على النيـل منها

فلم يستطيعوا، ورأوا أن يُذلّوها بالسخرية منها، ولكن أنّى لهم وهم الأعداء؟ لذا فقد أوكلوا إلى أتباعهم هذه المُهمّة، فكانت الشائعات تُروّج عليهم، والنكت تروى عنهم، حتى أصبحوا أُمثولةً للرجل غير المستقيم، فكان ردّ الفعل عندهم بالتعالي كي يُحافظوا على شيءٍ من هيبتهم، وإن كان هذا اجتهاداً منهم، وربما كان خطأً من أساسه غير أنه لا بدّ من ردّ فعلٍ يقومون به، وربما كان الفقر يُلجىء بعضهم إلى سلوكٍ غير طبيعيٍ ، أو إلى اتخاذ موردٍ للرزق لا يليق بما هم عليه من مكانةٍ لدى العامة، وهذا ما يُؤكّد بعض الشائعات، ويُحقّق بعض الأقوال عنهم عند الذين لا يُدركون الواقع من العامة.

أصبح هؤلاء نتيجة ردّ الفعل لا يتكلّمون إلّا قليلاً وبتعالٍ ، ويمشون باستكانةٍ ووقارٍ، ويلبسون ما فيه التكبّر وجرّ الرداء، وإذا كان بعض هذه الأمور مطلوباً كالمشي بوقارٍ إلّا أن التكبّر وجرّ الرداء، مرفوض، ولكنّ الظروف كانت وردود الفعل تجعلهم على هذه الحال، ونتيجة فقرهم إذا أرادوا شراء شيءٍ أو بيع آخر، أكثروا الجدل والمساومة حتى يملّهم البائع ويكرههم المشتري، وتزداد لهم نظرة الازدراء. وإذا دخلوا بيوتهم أرادوا استمرارية وضعهم في الخارج وهذا ما يُؤذي الزوجة التي تريد الدعابة والعطف،

ويُعقّد الولد الذي لا يستطيع الحركة ولا يمكنه الاستفسار عن شيءٍ، لا يستفيد من خبرة أبيه بل لا يتحدّث معه فيملّ الولد ويخرج من البيت ويُريد التعويض، فتظهر المفارقات، وقد يتأخّر الولد عن بيته، ويكون التقريع والتوبيخ وقد تصل العقوبة إلى أكثر من ذلك، فيكون المساء على غير خير، والصباح كذلك كلٌ يقبع بزاويةٍ الأبُ يُريد فرض هيبته من غير حقّ، والابن يرغب في نيل حقّه من غير طائلٍ، وإذا كبر الولد كان الخلاف مع الوالد وكل يسير في طريقه.

ولضيق ذات اليد نفسه لدى هؤلاء ما يجعلهم يتبرّمون في الخارج إذ لا يمكنهم ابتياع الحاجات كأقرانهم، ويعودون إلى البيت مُتضجّرين، ويُخيم الحذر والخوف على البيت، وإذا ما صادف وجاء ضيف أعلنت الأحكام العرفية حيث يُريد رب البيت الظهور على غير الواقع، وينتشر خبر حقيقة الإنسان من أهل البيت إلى الأقرباء، فالمعارف، ثم يشيع فتكون النظرة عامةً، ويسير الركبان بالخبر، ويُطبّق على كل من يعيش على هذه الشاكلة، حتى عُمّمت الفكرة على المشايخ وأهل العلم جميعاً، وإذا كانت هذه صحيحةً على طائفةٍ قليلةٍ منهم إلاّ أنها باطلة بعيدة عن الكثرة منهم الذين هم أهل فضلٍ، وعلمٍ، وتربيةٍ، وسلوكٍ، ولكنه الظلم الاجتماعي، ومكر الكافرين، وتخطيط الأعداء

ومع بُعد الأعداء عن الساحة الداخلية ولو برجالهم فقط دون أفكارهم التي بقيت يروّجها أتباعهم، وتحملها صنائعهم، ويعمل بها ربائبهم، ومع تطوّر العلم وعدم إمكانية وضع حواجز أمام انتشاره، وسرعة المواصلات، وسهولة نقل المعلومات، ووسائل الإعلام الحديثة، فقد توسّع العلم، وانتشرت الثقافة، وقامت أجيال تحمل مشاعلها. ونظر الشباب الناشيء الملتزم بالإسلام إلى الأجيال السابقة وما فيها من سلبيات ولم يبحث في الإيجابيات وصمود أولئك الرجال أمام الأعداء.

بدأ انتقاد الشباب إلى الشيوخ انتقاد نشأةٍ وسلوكٍ لا انتقاد علمٍ ومعرفةٍ، ونقد تربيةٍ وانتشار خرافاتٍ، لا نقد صمودٍ وتحدٍّ، ونقد عدم معرفة الواقع وتخطيط الأعداء لا نقد ارتباطٍ وتعاونٍ أو تأييدٍ وتنسيقٍ، ونظر الشيوخ إلى الشباب نظرة استخفافٍ أو نظرة كبارٍ إلى أطفالٍ، وأحياناً نظرة تهوّرٍ ورعونةٍ، ووقع انفصام بين الطرفين وتبع عوام ومُريدون الشيوخ، وتنظّم الشباب في حركاتٍ، وكان العمل الإسلامي مُتبايناً عند الفريقين كتباين الجيلين.

ومن هذه النظرة ومن انقسام العوام بين الشيوخ، والشباب بين الحركات كان النقد والانتقاد والتعصّب الابتعاد وكان التعالي والتعالم، وكل يظن تفوّقه بالعلم

على من سـواه، وكم ينتفش عنـدمـا يسمـع ثنـاءً، فتـرى الخطيب المتكلّم لا يصغي إلى كلامه إلاّ إخوانـه وما عـداهم فـانتقاد، أخـطأ باللغـة، أطال، اختصـر، تعرّض لـ ، رفـع صوته من غيـر داعٍ لذلـك، كان صـوته ضعيفـاً، كلام عن السفاسف وترك للأفكار الـرئيسية والمـوضوعـات الأساسيـة الحسّاسة، حتى إمام المسجد يُنتقـد في قراءتـه، وركوعـه، وسجـوده، و . . . وكل من يتحـدّث في مسجد واعـظاً هذا شأنه وكذا المحدّث والداعية، وما كان هـذا شأن المسلمين في يومٍ من الأيام، وما كانت هـذه الحال على مـا هي عليه الآن.

ليس على الـدعـاة أن يبتعـدوا عن هـذا فقط وإنمـا عليهم أن يُنبّهـوا على هـذا، ويمنعـوا تـلامـذتهم من أن يخوضوا فيه، فإذا ما فعلوا كانت بداية الوعي وأول الصحوة الإسلامية التي طال سماعنا لها دون أن نلمس شيئـاً منها إلاّ مـا نُهوّل من أمـرها ونُعـظّم من شأنهـا حتى اتّخـذ الأعـداء الاستعـدادات المُضادّة وكـل التخـطيـطات المُعـوّقـة، وهي لا تزال جنيناً حتى كادت تموت قبل أن تلد، وتمّ الإجهاض لصراخنا الذي أخفنا به الأعداء من غير أن يتمّ شيء.

إن هذه المُهمّة كبيرة على الدعاة، في الحركـة بهدوءٍ،

والتخطيط قبل الشروع، واليقظة عند كل خُطوةٍ، والحذر عند كل تصرّفٍ.

وعلى الدعاة أن يُواظبوا على صلاة الجماعة فأكثر ما ينتقد شباب الحركات الإسلامية به إنما هو التقصير بحضور الجماعة، والتكاسل في أدائها بوقتها. ولقد سكنت قريباً من بعض هؤلاء خمس سنواتٍ فما رأيت اثنين منهم سوى مرتين أو ثلاث طيلة هذه المدة، على أن أحدهما يُخطّط ليتصدّر العمل، وليبرز فوق الجميع ويُلقي بنفسه في كل الميادين وأمام كل طاغية من أجل ذاك، ومع هذا فهو أحد الرؤوس المتحرّكة. . .، ولا يرى إخوانه منه هذا، لأنهم لا يرون إلّا ما يُحبّون، ولا يسمعون إلّا ما يُريدون وما يُقال لهم، ويُخطّط لهم ويُفكّر لهم، ويُقال لهم ما يردّدونه، وضعوا على عيونهم عصابةً سوداء، وحشوا آذانهم بالقطن، وعطّلوا عقولهم، وأن الثاني منهما قد مثّل حركته في أعلى المناصب. . .

* * *

وَاقِع المُسْلِمِينَ الاجْتِمَاعِي
(١)

فرض الإسلام على أتباعه خمس صلواتٍ في اليوم، وطلب منهم أن يؤدّوها في المسجد ليلتقي المسلمون من أهل الحي خمس مراتٍ في اليوم والليلة فيتعرّف بعضهم على بعضٍ، ويتزاورون ويتعاطفون و . . . ومن يتغيَّب عن الجماعة يسألون عنه، رُبما حلّ به مرض، أو أصابه مكروه، وهو الآن بحاجةٍ إلى مُساعدة إخوانه، وقد يكون من الضرورة مُعاونته لذا فهم يتفقّدونه ويذهبون إليه.

وفرض صلاة الجمعة ليجتمع أهل المنطقة في جامعهم فيسأل بعضهم عن بعضٍ، ويتشوّق الأخ إلى أخيه والصديق إلى صديقه، والرجل إلى قريبه في الأسبوع فيلتقون ويطمئن كل عن الآخر، ويكون ذلك اللقاء مُناسبةً طيبةً للتعرّف على من سكن المنطقة حديثاً، أو حلّ ضيفاً، أو جاء زائراً.

وشرع الإسلام أيضاً صلاة العيدين ليلتقي أهل

المدينة جميعاً في المصلى، فيدعو بعضهم لبعضٍ، هذا إضافةً إلى ما يُذكّر به الخطيب الناس من التراحم، والتعاطف، والتوادد، ويُعرّف بأخبار المسلمين في الإقليم كله بل وفي الأمصار الإسلامية جميعاً، وواجب المسلمين تجاه كل حادثةٍ وما عليهم فعله من دعمٍ، أو جهادٍ، أو مُواساةٍ.

كما أمر الإسلام بصلة الرحم، وعيادة المريض، والمشي خلف الجنازة، وتفقّد الجار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفشاء السلام، والتعرّف على الناس.

لكن أين هذا كله؟ لقد نسيه المسلمون، واكتفوا بقراءته بالكتب، والتذكير به أحياناً، من غير تطبيقٍ، والتشديد أحياناً بالدعوة إليه دون تنفيذٍ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾[1]، وقال تعالى أيضاً: ﴿**أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون**﴾[2].

ليس من يفعل هذا عامّة المسلمين فقط، وإنما خاصّتهم أيضاً وربما كان الخاصّة أكثر إهمالاً لهذه

---

(١) سورة الصّفّ: الآيتان ٢ ــ ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٤.

التعاليم، ولست أدري ألمعرفتهم وأنه لا يستطيع أحد أن يُذكّرهم ما داموا على علمٍ أم أنهم أجرأ على المخالفة؟ وتراهم فعلاً يدخلون إلى المسجد لا يُكلّمون أحداً، يُؤدّون عبادتهم ويخرجون كما دخلوا، وليس الإمام بأقلّ منهم، يتصدّر كالقبلة، ويدخل ويخرج كالطاووس، وقد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه وأصحابه من بعده، وكل من سار على نهجهم يدخل مُسلّماً، ويخرج يُسلّم على المصلّين، ويسأل عن أحوالهم، ويعود مرضاهم، ويتفقّد أخبار القادم الجديد، وهذا ما يعرفه الأئمة والدعاة ولكن لا يُطبّقونه، ولو ذكّرتهم لأخذتهم العزّة، وأجابوا بالمعرفة وليسوا بحاجةٍ إلى تذكيرٍ، على حين يطلبون دائماً من المسلمين أن يُذكّر بعضهم بعضاً، ويتلون عليهم قول الله، عزّ وجلّ: ﴿**وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[2].

يسكن المرء حياً جديداً ويؤمّ المسجد وفي خاطره أنه سيتعرّف على إخوةٍ جددٍ، ويُفكّر بمشروعات للعمل في ذهنه، ويغدو ويروح إلى المسجد ولكن لا يُبدي أحد

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٥.

(٢) سورة ق: الآية ٣٧.

اهتماماً به، ولا رغبةً في التعـرّف عليه، فكـل يُصلّي ويسير في دربـه، وربمـا بعضهم لا يُسلّم على الآخـرين، وحتى الإمام ليس سوى واحـدٍ منهم، لا يختلف عن بقية المُصلّين إلّا أنـه مُتعالٍ لا يعـرف التواضـع سبيلاً إليـه، فيقف المرء باهتاً أمـام هذا التصـرّف ومُستغربـاً، فأين الإسـلام ودعوتـه للتعارف؟ وأين المبادىء والاهتمام بإخوانه المسلمين؟ وأين الفكر والتواضع لله؟ إنها ـ مع الأسف ـ ربما تـوجد خـارج المسجـد ولكنها مفقـودة في داخله. وكلما كـانت المنطقـة أكثر انعزالاً ومُحـافظةً كـانت أكثر انغـلاقاً مـع أنها يجب أن تكون أكثر اهتماماً بالتعرّف على الإخـوة في المسجد وأكثـر التحاماً بين العناصر الإسلامية، وبهـذا يشعر المـرء بالضيق فإذا كان شاباً متفتحاً يبني آمالاً على العمـل والدعـوة تضيع آماله ويجد اليأس إلى نفسه طريقـاً، وإذا كان مُسنـاً ظنّ أن شيخـوخته قـد أبعدت عنـه الناس فيـراوده الإحبـاط ويشعـر بـالأسى والمرارة، ويحسّ أن مُهمّتـه في الحيـاة قـد انتهت إذ ملّه المجتمع وابتعد أفراده عنه.

وأصبح الإنسان لا يعرف جيرانه من السكان كمـا هي في البلدان غير الإسلامية وذلك كله بعـداً عن المعاني التي يأمر بها الإسلام.

وعلى الـدعـاة أن ينتبهـوا إلى مثـل هـذا الأمـر، وأن

يكونوا عنصراً حركياً في المسجد، ليُؤدّي المسجد دوره في الحياة، وليكون كما كان أيام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعهد خلفائه الراشدين، وفي كل المراحل التي كان يُطبّق فيها الإسلام، على الدعاة أن يتعرّفوا على روّاد المسجد، وأن يزوروهم في بيوتاتهم، وأن يدعوهم إلى منازلهم، وأن يتعرّفوا على قدرات كل واحدٍ وإمكاناته، ويُكلّفوه ما يمكنه القيام به، ليقوم الشعور بالأخوة داخل النفوس، ولتتحرّر من العزلة، وليزول اليأس هذا إضافةً إلى ما نقوم به من واجبٍ إسلاميٍ، وتنفيذٍ لما أمر به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولما أراده عندما بنى مسجده في المدينة يوم أن هاجر إليها. لقد أراد أن ينتهي دور الأندية التي كانت تلتقي فيها القبائل، إذ كان لكل قبيلةٍ نادٍ خاص يجتمع أفرادها به، فلما بنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أصبح مكان التقاء المسلمين جميعاً من مختلف القبائل، وغدا المسجد يغصّ بالروّاد، وأصبحوا جميعاً كتلةً واحدةً، وانتهت التفرقة والخلافات، وزالت التجزئة والانقسامات. ويجب أن يعود للمسجد دوره بجهود الدعاة.

* * *

وَاقِع المُسْلِمِينَ الاجْتِمَاعِي (٢)

كان الرجل الذي يُقبل على الإسلام، يخلع قبل أن يدخل فيه كل ما ورثه من عاداتٍ جاهليةٍ وتقاليد، ويكره من كل جوارحه كل من يُعادي الإسلام أو يقف في طريقه وسبيل الدعوة إليه، ويُزيل من قلبه كل ما كان فيه من حقدٍ على أي مُسلمٍ في الأرض مهما كانت لغته ومهما كان لونه وعرقه، ويُحبّ من كل جوارحه المسلمين جميعاً، ويعدّهم إخوانه بحقٍّ مهما تقدّم عصرهم فإنهم جميعاً يُؤلّفون أُمّةً واحدةً هي الأمة المسلمة، ويُردّد قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾[١].

وأخذت الجاهلية تظهر من جديدٍ، تظهر في العصبية للقوم، وللإقليم، وللمدينة، والقرية، والحي، والأسرة،

(١) سورة الحشر: من الآية ١٠.

والتنظيم والحركة، ولا أقول هـذا بالنسبـة إلى الذين يُقبلون على الإسـلام من جـديـدٍ، فهؤلاء لا تـزال مُتـأصّلة فيهم عـادات جاهليـة وربما نتحـدّث عنهـا بعـد قليـلٍ، ولا إلى العـامة فهؤلاء قـد يُعذرون نتيجـة الجهـل الـذي يُخيّم على عقـولهم، وربما عنـدما يعـرفون يتـركون مـا هم فيه، ولكن أقـول بـالنسبـة إلى الـذين يتصـدّرون العمـل الإسـلامي أو يدّعون ذلك.

ذكـر لي أخ أحسبـه صـالحـاً تقيـاً ـ إن شـاء الله ـ ولا نُـزكّي على الله أحداً، قـال: درست في مدينـةٍ المرحلة المتـوسطة كلهـا، ولم أستـطع أن أتخـذ من هـذه المـدينـة صديقاً على حين مكثت في مـدينة كـذا عدة سنـواتٍ ربيت فيها أصدقاء، وعشت سنةً في مدينة كـذا تعرّفت فيهـا على إخوةٍ فأنا لذلك لا أثق بإنسانٍ من أهل المـدينة الأولى وأرى فيهم تعصّباً غريبـاً بعضهم لبعضٍ، وحـاولت أن أثنيـه عن رأيـه بأن الله جـلّ وعلا لم يخصّ أهـل مدينـةٍ بخيرٍ، وأهـل أخرى بشرٍّ، وإنما في كل بلدٍ الصـالح والـطالح حتى بعث لوطاً عليه السلام في بلدٍ كـانت تعمل الخبـائث فكان عليـه السـلام فيها، وقلت لـه: ربمـا كـان ذلـك في عـدم اتخـاذ الصـديق في المـدينـة الأولى السن التي كنت فيهـا و . . . ولكن دون جدوى وفشلت الفشل كله، وبقيت عنـده عصبية

ضدّ أهل تلك المدينة، وهو يعرف ويُنادي بأن العصبية جاهلية وهو يُحارب العصبيات بكل أشكالها، ولكن لا يُدرك ما في نفسه، إنه لا يعرف أن العصبية ليست عصبية لـ فقط وإنما عصبية ضدّ، فهو لا يتعصّب لمدينةٍ ولا لقومٍ وإنما يتعصّب ضد مدينةٍ بعينها، والواقع أنه ضمن مجموعةٍ تتعصّب كلها ضدّ أهل هذه المدينة عصبيةً جاهليةً بغيضةً ليس ضدّ أهلها جميعاً وإنما ضدّ المسلمين منهم وهنا تكون الطامة الكبرى والعصبية الحمقاء، فالإسلام يُحارب العصبية ونحن من أتباعه ونتعصّب ضد إخواننا من أتباعه في هذه المدينة... ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾.

وهناك مجموعة من المسلمين لها تنظيمها الخاص أو ارتباطها بعضها مع بعض تتعصّب لهذا الارتباط تعصّباً أعمى، فهي لا تُحبّ بلا شك الملحدين والفاسقين، وتكره المنحرفين والمائعين، ولكنها تكره بشكلٍ أقوى المسلمين الذين لا ينضوون تحت لوائها حتى لتصل هذه الكراهية إلى حدّ الحقد الذي يأكل القلوب ـ معاذ الله ـ وإن كانت لم تُكفّرهم بعد وربما يأتي ذلك اليوم. إنها مجموعة مضطهدة في بلدها، وعدد كبير

من المسلمين مُضطهدين أمثالهم، غير أنها تعمل على محاربتهم في إقامتهم، في موارد رزقهم، في دراستهم، وفي كل شيءٍ، وتتخذ في سبيل ذلك الكذب، والدسّ، والارتباط ولا مانع عندها في أكثر من ذلك حقد غريب، وغلّ عنيف لا أعرف له سبباً إلاّ الجاهلية. وأعتقد أنا في أكثر شبابها الخير، ولكن يقدُمهم من يُوردهم مورد الجاهلية، ويفتري الكذب كي يفتن أتباعه ويتبعوه في هواه... ومع هذا التعصّب فإن أصحابه يتهمون الآخرين بالتعصّب ليغطّوا موقفهم، وليبرّروا فعلهم، ويتشدّدون في الاتهام، ويظهرون الأسف على مثل هذا التصرّف المخالف للإسلام حتى ليصدقهم بعضهم من إظهار شدة تحرّقهم للعمل ووحدة الصف، والله يشهد إنهم لكاذبون.

على الدعاة أن ينتبهوا إلى هذا، وأن يضعوا العصبيات كلها تحت أقدامهم، عليهم أن يدوسوا على عصبية القوم، والإقليم، والمدينة، والتنظيم، وأن يعملوا مخلصين لله.

على الدعاة أن يذكروا أن ما من رسولٍ إلاّ وقد أخرجه قومه، وربما كان ذلك لئلا تتعصّب المدن الأخرى ضد دعوته ظنّاً منهم أنها من مدينة (كذا) وخاصةً بها ولرفعتها، أو أن تلك الدعوة خاصة بذلك القوم ولرفعتهم، وأنها مُوجّهة ضدّ قومهم هم.

على الدعاة أن يعلموا أن التنظيم وسيلة وليس غـايةً، وأن أي تنظيم إنما هو جزء من جماعة المسلمين، وليس هو المسلمين وحـده، فهـو جـزء من جمـاعـةٍ وليس الجمـاعـة كلهـا، بل أي تنـظيمٍ لا يُعادل مهمـا كبـر حجمـه ٥ ٪ من مجمـوعـة المسلمين في مصـرٍ من الأمصـار، وإن التعصّب للتنظيم لهو تفرقة للمسلمين أولاً، وسيرهم في شعبٍ، وهم القلّة، والآخـرون وهم الكثـرة في شعبٍ ثـانٍ حتى تبـدو قلّتهم، ويُطمع الأعداء بهم، ويسهل ضربهم، كما يستطيع الخصـوم بذلـك من أخذ أعـوانٍ له من خصـومهم ضدّهم، وهـذا ما يجري على الساحـة اليوم، إضـافةً إلى ذلـك كله مـا في التعصّب من مخـالفـةٍ لـلإسـلام، وصفـةٍ ذميمـةٍ في المجتمع.

* * *

وَاقِع المُسْلِمِينَ الاجْتِمَاعِي (٣)

نتيجة البعد عن تعاليم الإسلام الذي تولّد مع الزمن، ونتيجة التهاون في التطبيق، ونتيجة العزلة التي عاشها المسلمون بسبب الضعف الذي أصابهم وأدّى إلى سيطرة الصليبيين المستعمرين، ونتيجة المحافظة على بعض العادات الجاهلية عند الذين أسلموا حديثاً أو اتخاذ عادات جاهليةٍ جديدةٍ لإظهار الفخر والقوة أو لإبراز الشجاعة والصبر، وهذه العادات جاهلية مستنكرة يرفضها العقل، ويأباها المنطق، ولا يقرّها الإسلام، وهذا ما يجعلها تُبعد الناس عن الإسلام، فلا يمكن أن يُقبل عليه من يعرفها، ولنأخذ بعض الأمثلة منها.

في منطقةٍ من أرض العرب كانت بعض القبائل تُريد أن تفاخر جيرانها من القبائل الأخرى بالكرم فتدعوها، وتظهر أمامها أنواعاً من الكرم، والصبر والشجاعة، وتقوم الثانية بالدور نفسه الذي تقوم به الأولى، ولذا كانت تنتهز

المناسبات لتقوم بهذه الاحتفالات، وكان من هذه المناسبات الاحتفال باختتان أطفالها، وفيها دلالة على كثرة الإنجاب، ثم كثرة عدد أبناء القبيلة إذ لم تكن يومذاك الإحصاءات التي نعرفها اليوم، وإنما يعرف عدد القبيلة بكثرة الولادات فيها، وعدد الشباب بعمليات الاختتان، وفي أيام الحروب واللقاءات. غير أن عملية ختن الطفل في اليوم السابع لا يبدو فيه صبر الطفل وقوة التحمّل، لذا صاروا يُؤخّرونه إلى ما بعد سنّ البلوغ مُخالفين السُّنّة في ذلك من أجل أمرٍ يحسبونه فخراً، ومن أجل إظهار قوة التحمّل تُقام الاحتفالات، وتحضر وفود القبائل، ويكون الختان على مرأى من الجميع من غير حياءٍ ولا تحفظٍ مُخالفين ما أمر الله به من استحياءٍ وسترٍ، بل كانت النساء تتقدّم الاحتفال على مقربة من العملية وفي الطليعة الفتيات الأبكار، وتطوّرت العادة إلى أكثر من ذلك، فإن عملية الختان لا تحتاج إلى أكثر من دقائق معدودةٍ، وهذا لا يكفي للمشاهدة ولا لإظهار الصبر وقوّة التحمّل والشجاعة لذا أخذوا يُطيلون في العملية، ويبدؤون بسلخ الجلد من تحت السرّة حتى منتصف الفخذين، والشاب واقف يرفع خنجره، ويُردد الشعر غير هيّابٍ بما يُجرى له، ولا يُبالي بالدماء التي تسيل منه ليبدي قوة جسمه وشجاعته وبالتالي شجاعة قومه،

وإذا أبدى جزعاً، أو ظهر عليه خوف كان سُبّةً له ولقومه مدى حياته بل لا تقبل فتاة الزواج منه ، وتأصّلت هذه العادة وأصبحت شائعةً في المنطقة ومن العادات والتقاليد الموروثة حتى أمر الحكم السعودي بإبطالها ــ جزاهم الله خيراً ــ وحاولت بعض القبائل أن تُحافظ عليها على أنها تراث شعبي غير أن المتابعة قد قضت عليها ولله الحمد. فأيّ امرىءٍ يرى هذا التصرّف بين المسلمين ــ ويظنّه فاعلوه أنه من الدين ــ ويُقبل عليه ليُفعل به ما يُفعل، ويُؤمن بعد ذلك أن هذا من عند الله. وربما كان أمثال هذه التصرّفات سبباً في بُعد الناس الجاهليين عن الإسلام.

وفي البلاد الحارة في إفريقية ينتشر الفساد وربما كان للحرارة والرطوبة أثر في ذلك، ولا يُبالي غير المسلمين بهذا أبداً إذ ليس لديهم تعاليم تحرّم عليهم ذلك، فهم لا يعرفون من الحياة سوى اللّذة في الطعام، والجنس، والنصر على الأعداء، أما المسلمون فعلى العكس يُحرّم عليهم دينهم عملية الزنا ويعدّها جريمةً تضيع نتيجتها الأنساب وتختلط، ويُعاقب مرتكبها المتزوج بالرجم، وغير المتزوج بالجلد فماذا يفعلون تجاه ما استشرى وهم يريدون أن يُحافظوا على الشرف والأعراض؟ لقد سوّلت لهم أنفسهم أمراً غريباً بسبب بعدهم عن الإسلام لقد فكّروا

بخياطة البنت بعد ختانها ـ وغالباً ما تُختتن البنات في البلاد الحارة إذ يزيد طول البظر عما هو مألوف عليه في البلدان المعتدلة والباردة، ويُسبّب زيادةً في التهيّج، وإزعاجاً للزوج، وقد أوصى المُشرّع بهذا الختان وخاصةً في مثل هذه الحالات ـ ولا تفكّ الخياطة إلّا عند الزفاف. فما هي نظرة النساء إلى هذه العملية وخاصةً في البلدان المعتدلة والباردة وأكثر خصوصيةً النساء من غير المسلمين؟ لا شك أنهن يرين في ذلك جريمةً، ولا يمكن أن تُقبل امرأة بعد أن تعلم ذلك على الإسلام بل تعدّه وثنياً يعبد الجنس. هذا من جانبٍ ومن ناحيةٍ أخرى، فإن عملية الخياطة هذه تزيد في الفساد الذي يريد المجتمع أن يهرب منه إذ ترى الفتاة أنها مُحصّنة ضدّ فكّ البكارة فتستسلم للرجل، ويرى الرجل أيضاً أن أمامه حصناً يقف أمام طغيان شهوته فيلعب كما يشاء، ويُحقّق كلا الطرفين شهوته ويقضي وطره.

وعلى الدعاة أن يقفوا في وجه هذه العادات وأمثالها، وأن يُحاربوها، وخاصةً فيما إذا كانت تنتشر في مناطقهم، وأن يدعوا فكرة العادات القومية، والمتأصّلة وما إلى ذلك من ادعاءاتٍ،فهي قبل كل شيءٍ مُخالفة للإسلام، وما دامت كذلك يجب إزالتها، والقضاء عليها، وهي من ناحيةٍ ثانيةٍ تقف عقبةً أمام انتشار الإسلام لما فيها من سوءٍ وأذىً،

وتُسبّب كراهيةً له وحقداً عليه لما ينتج منها من أضرارٍ، وتُعطي نظرةً غير صحيحةٍ عن الإسلام بل وسيئةً.

وقد أعطيت أمثلةً عن هذه العادات، وهي في الحقيقة كثيرة، وقد لا يخلو مجتمع من بعضها، وربما لا نعرف الكثير منها، وكلها بحاجةٍ إلى استئصالٍ، وعلى الدعاة ألّا يهابوا في إنكارها ومُحاربتها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، والإصلاح أساس في العمل الإسلامي، والحقّ أحقّ أن يُتبع.

ومن المؤسف له أن بعض الذين يعملون في الحقل الإسلامي يتأثّرون في بعض العادات ويُحافظون عليها خوفاً من الابتعاد عنهم أو تحت اسم العادات القومية، أو التراث الشعبي، وأحياناً ربما كان لهم فيها مصالح ذاتية وقد تصل إلى المستوى الشهواني. وقد أخذت تنشأ جمعيات باسم المحافظة على التراث الشعبي، وهو ما يدعونه بـ (الفلوكلور) وربما كان في بعض هذه العادات مُخالفات صريحة للإسلام، وتختلف نسب المخالفة بين عادةٍ وأخرى.

* * *

وَاقِع المُسْلِمِينَ الاجْتِمَاعِي
(٤)

قد يصل أحد الذين يعملون في الحقل الإسلامي إلى منصبٍ عالٍ، أو تؤول إليه إدارة عمل، أو يُكلّف بمهمةٍ حسّاسةٍ، ويُباشر العمل، ويظنّ أن تقدير العاملين له لا يتمّ إلّا بفرض شخصيته وأن هذا لا يحدث إلّا بالمرور على العاملين من غير سلامٍ ولا تحيةٍ، وبالتعالي على الآخرين فيدخل عليهم دون إذنٍ، ويُلقي أوامره من غير مُناقشةٍ، ويُحدّثهم ولا يُريد جواباً، ولا يسمح لأحدٍ بالدخول عليه، وما إلى ذلك من عاداتٍ بشعةٍ وأخلاقٍ غير طيبةٍ، وهذا ما يجعل التابعين له يتضجّرون منه، ويكرهونه، ويتمنّون الخلاص منه، ويُعطونه أبشع الصفات: مُعقّد، متكبّر، لا يعرف الإدارة، جاهل يُريد أن يُغطّي جهله بهذه التصرّفات، وفي الوقت نفسه يُصبحون يكرهون كل من يعمل في الحقل الإسلامي بسببه ويظنّونهم جميعاً مثله وبالتالي يقفون في الصف المقابل للصفّ الإسلامي.

والأصل أن يستطيع الداعية بأخلاقه الرضية، ونفسه

الهنيـة، وسلوكه الـطـيب أن يُؤثّـر على العـاملين معـه، وأن يكسبهم إلى صفّـه، وإلى دعـوتـه، فهـو يعمـل في هـذا الميدان فكيف وقد جيء لـه بعددٍ وُضعـوا تحت قيادته؟ فهم أكثر طواعيـةً له من الـذين يلتقي معهم دون أن يكون بينهم أية صلةٍ، وهم أكثر استجابةً له من الذين ليس لهم مصلحة معه، والناس في بداية أمرهم قبل أن يحملوا الإسـلام فكراً أصحاب مصالـح وذوو حاجـاتٍ، وهو الآن مُنفّـر ولا يصلح أن يكون في صف الدعوة.

وإذا سـألتـه أجـاب: إن المجتمـع فـاسـد بـالـطبـع لا يستقيم أمره إلّا بهذا السلوك، ولا يُقوّم إلّا بهذه الطريقة، وبُعـده عن الإسـلام لا يُعيـده إليـه إلّا إظهـار القـوة وإبـداء القسوة، وهذا هو الخطأ بعينه.

على الـدعـاة أن يعلمـوا أن الاقتـداء بـرسـول الله، صلى الله عليه وسلم، هو الأصل، وأن اجتهادات الأفـراد، وفلسفـات الأشخاص لا يُقـاس عليه ولا يُؤبـه به، وقـد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتلطّف مع الناس ويتـودّد إليهم، ويُعاملهم مُعاملةً واحدةً، وهو سائر بهم إلى القتـال، وهـو أمير عليهم في السفـر، وهـو رسـول لهم، وهـو فـرد بينهم، لا فـرق بين حـالـةٍ وأخرى، وفي كـل الحـالات يمنحـونه أسمى آيـات المحبـة والتقـديـر، وفي هـذا يقـول

أبو سفيان وذلك قبل أن يُسلم: ما رأيت أحداً يُحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً. إذن يجب على الداعية أن يكون على حالةٍ واحدةٍ في مُعاملة الناس سواء أكان عليهم مُديراً أم رئيساً، فرداً بينهم صغيراً أم كبيراً، مُكرماً لهم أم مُكرّماً فيهم، موظفين عنده أم موظفاً عند أحدهم يعطف عليهم، يريد أن يخرجهم مما هم فيه، يأخذ بأيديهم إلى الخير، فهو داعية في كل حالةٍ، فكرة الدعوة لا تفارقه في مرحلةٍ من مراحل حياته وهكذا كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

والمسلم الذي يدعو في المسجد ثم يتعالى بماله في السوق، أو يفتخر بمجده في المجتمع، أو يتباهى بمنصبه في عمله، أو يستبدّ في قيادته، أو يمنّ على عماله ليس بداعيةٍ، بل إنه ليبتعد عن السمة الإسلامية، وينفّر الناس من الإسلام، ويُبعدهم عنه.

الداعية يجب أن يكون تصرّفه واحداً سواءً أكان بين إخوانه الدعاة أم بين تلامذته أم بين أفراد مجتمعه أم بين عماله، وفي كل ميادين الحياة.

وهنا وبهذه المناسبة لا بدّ من أن ألمح إلى ناحيةٍ أخرى وهي: مُعاملة الإنسان المسلم للذين يعملون عنده في البيت كخدمٍ أو غيرهم، فيجب أن يتصرّف معهم كما

أمـر رسـول الله، صـلى الله عليـه وسـلم، أن يُـطعمـهم ممـا يـطعم، وأن يلبسهم ممـا يلبس، وألّا يُكلّفهم فـوق ما يطيقـون، فإن كلّفهم فليعنهم، ويمكن للمسلم إن كـان عنده أحد في بيتـه أن يعرف مقـدار صدقـه بما يـراه في بيته وبـالنسبـة التي يُحبّـونـه فيهـا من قلوبهم من غيـر ريـاءٍ ولا مُجاملةٍ.

وعلى الدعاة أن يُنبّهـوا إخوانهم وتـلامذتهم في عـدم التصرّف برعونةٍ، فقد غدا الملتزمون بـالإسلام مُميّـزين في المجتمـع بلحاهم على الأقـل، وفي الوقت نفسـه أصبحـوا محطّ الأنـظار، وكـل تصـرّفٍ يتصـرّفـونـه يقـوّمـه المجتمـع ـ حسب تـصـوّره ـ بـالإسـلام دون مـراعـاة الـسنّ. فـمـا أبـشـع مـن الـشـيخ الـذي يـتـصـابى، ويُعـطي الناس اليـوم الشاب الملتـزم أكثر من سنـه، وكثيراً ما يعدّونه شيخاً، وغـالباً مـا تكون اللحيـة سمةً عليـه، وكم يُسيء إلى الـدعوة هـذا الشاب الملتـزم الذي تـظهـر عليـه الـرعـونـة في الـطريق، أو أثنـاء قيـادتـه للسيـارة، أو بعض التصرّفات الأخـرى من ضحكٍ أو لهـوٍ أو . . . لذا يجب أن يُنبّه الدعاة هؤلاء الشباب فهم محطّ الأنظار ومجال الحديث عنهم وخـاصةً من قبـل الأفراد غيـر الملتزمين، ومـا أكـثـر هؤلاء في كل مجتمعٍ.

* * *

وَاقِعِ المُسْلِمِينَ الاجْتِمَاعِي (٥)

إن العزلة التي عاشها المسلمون، وإهمال أمور دينهم الذي مارسوه، والتهاون الذي ساروا عليه في تطبيق شريعتهم قد جعل أفكاراً غريبةً تدخل عليهم، نبع بعضها من واقعها. كما جاء بعضها الآخر من مختلف الشعوب التي دخلت في الإسلام مما بقي عندهم من الجاهلية، واستمرّت معهم للعزلة التي وُجدوا فيها، أو أحياها بعضهم جهلاً، أو اعتقاداً بصلاحها لعدم معرفتهم، وقد يكون كيداً ومكراً وتفريقاً وتهديماً.

ومن هذه الأمور القعد عن طلب الرزق باسم التصوّف والزهد في الحياة، وهي أمور دخيلة على مجتمعنا، أما مفهوم الزهد في حياتنا فهو ألا يكون الإنسان عبداً للمادة يتفانى في طلبها ويقتل نفسه في سبيل الحصول عليها، وهي بالمفهوم الإسلامي وسيلة وليست غايةً، أما أن يجلس المرء يأكل ما خشُن من الطعام ومن خشاش

الأرض، ويلبس البالي والمرقّع، ويمشي حاني الظهر، قذر الثياب، يجمع الفتات من هنا وهناك باسم الزهد، فهذا بعيد عن الإسلام، ومُقعد عن عمران الأرض، وقاتل للهمة، ومُفَتّرٌ للعزيمة وبالتالي يُصبح تبعاً للآخرين النشيطين المتحرّكين الذين يقومون على عمران الأرض، وعبداً لأولئك الذين يمضون ليلهم ونهارهم يُفكّرون في التعرّف على ما في هذه الأرض من أسرار ليستخرجوا كنوزها ويستثمروا خيراتها، والمسلم في المفهوم الإسلامي ليس ملك نفسه وإنما هو جزء من الأمة، ولبنة في بنائها، وملك لها، مع الحرية الكاملة له في تصرّفه، فهناك توازن تام بين حرية الفرد وبين ارتباطه بالمجتمع، فإذا سعى كل فردٍ بكامل جهده نعُمت الأمة بالخير وعاشت بسعادةٍ ورفاهيةٍ، وإن توانى وتصوّف وزهد عمّها البؤس، وتراجعت عن موقعها وهذا ما يحرص عليه الأعداء.

ومن هذه الأمور اتخاذ واسطةٍ بين العبد وربّه في العبادة، وهذه فكرة جاهلية نمت وترعرعت في المجتمع العربي وغيره من المجتمعات قبل الإسلام وقد زالت بانتشار الإسلام ورسوخه، ثم أخذت تظهر من جديدٍ تحت تأثير الصوفية أيضاً فظهر أناس ادّعوا العلم، واتخذوا سمة المشيخة وأبدوا الورع والزهد حتى تبعتهم العامة فأحلّوا

لهم وحرّموا عليهم ما لم يأذن به الله، فأطاعوهم فكانت تلك الطاعة عبادة، ولعلنا نذكر قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعدي بن حاتم، رضي الله عنه، عندما تلا عليه: ﴿اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلّهاً واحداً، لا إله إلا هو، سبحانه عمّا يُشركون﴾[1]، فقال عدي:

لم نعبدهم يا رسول الله، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، [ألم يُحلّوا لكم]، قال: بلى، قال: [ألم يُحرّموا عليكم] قال: بلى، قال: [وتلك عبادتهم]، وقد وصلت الأمور بهؤلاء المدّعين إلى إسقاط العبادة عن أتباعهم باسم «الوصول إلى الحقيقة العظمى»، وإباحة ما حرّم باسم «الأخوة» و . . . وأمور لا داعي لبحثها. . . فأطاعوهم باسم التصوّف، وإن كانت الصوفية تختلف بين مجموعةٍ وأخرى، فتبدأ بالزهد حتى تصل والعياذ بالله إلى الإباحيّة وإسقاط ما فرض الله على الأتباع، وإن كانت تلتقي تحت اسم «الصوفية»، واتباع الشيخ والتلقّي منه.

ومن هذه الأمور الطلب من غير الله، والتوسّل بالأموات وذلك أن المسلمين لما ابتعدوا عن دينهم،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

وقصّروا في أداء عباداتهم شعروا بإهمالهم، وأحسّوا بمخالفتهم ولكنهم لم يرجعوا إلى ما أهملوه، ولم يعودوا إلى ما خالفوه، ومع ذلك فقد بقيت عندهم عاطفة جيّاشة نحو دينهم وإحساس عميق بحبّ شريعتهم، وأصبحوا يُقدّرون كل من يُحافظ على عبادته، ويتمسّك بما فرض الله عليه، ويلتزم بواجباته ونتيجة هذا التقدير أصبحوا يتبرّكون به، ويتوسّلون به إلى الله، وكل ظنّهم أن في هذا خيراً، ولم يدروا أنهم وقعوا بالشرك، ويستمرّ هذا التبرّك، وهذا التوسل إلى ما بعد موت هذا الصالح فيذهبون إلى قبره ويقومون بما كانوا يقومون به في حياته من تبرّكٍ بالقبر، وطلب الحاجات، والاستغاثة، وتحقيق الحمل والإنجاب وما إلى ذلك من أمور لا تُطلب إلّا من الله، وربما بنوا على القبر القباب تعظيماً للميت واحتراماً ثم لا تلبث أن يصبح هذا المكان مزاراً يؤمّه الناس، وينذرون له النذور، ويُقدّمون له الأضاحي، وعلى الرغم مما في هذه الأعمال من سوءٍ، وشركٍ بالله، فإن الذين يقومون بهذه الأعمال يظنّون أنهم يُحسنون صنعاً، بالتقرّب إلى الصالحين، والتوسّل بهم إلى الله وذلك نتيجة الجهل والبعد عن تعاليم الإسلام، ووسوسة الشيطان وإغرائه.

هؤلاء مسلمون وأصحاب عاطفةٍ إسلاميةٍ مع أنهم

يقعون في أبشع الأعمال ويقومون بأمورٍ أكثر ما تكون بُعداً عن الإسلام لذا يجب على الدعاة أخذ هؤلاء باللين والحكمة البالغة فيجب أن تُثار عاطفتهم الإسلامية ثم يُعطوا الحكم الصحيح، والتصرّف الذي يجب أن يكون، ولا يُقال لهم: إنكم مُخطئون إذ يصعب عليهم أن يتقبّلوا مثل هذه الحقيقة، أو يقبلوا أن يُقال لهم: إن شيخكم هو الذي يُخطىء لأن الصورة عندهم عن الشيخ كبيرة، ولكن بعد أن يسير بهم الداعية شوطاً في العلم، ويُعرّفهم بالتصرّف الصحيح، يمكنه أن يقول لهم: إن غير هذا على غلطٍ، وبعد مدةٍ أخرى يُبيّن لهم الغلط الذي كانوا عليه. . . وهكذا تدريجياً وعلى مراحل مُتتابعة. وأصعب ما يكون أن تقول لأمثال هؤلاء: إنكم على شركٍ، إذ تقع عليه كالصاعقة فهو يعتقد بنفسه الإيمان والعاطفة الجيّاشة نحو دينه، ثم يُواجه بهذه الجلافة لذا يكون ردّ الفعل عنده قوياً، ويصدّ الداعية، ويستمرّ على ما هو عليه من الجهل والتصرّف السيء وهذا ـ مع الأسف ـ ما يقع اليوم بين الدعاة وهؤلاء المدّعين للمعرفة، وقد أُمرنا أن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى الدعاة أن يُعاملوا هؤلاء بالتي هي أحسن، ويكفي أنك تستطيع أن تقول لهم: قال الله عزّ وجلّ، وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

وهم مؤمنون بكلام الله وكلام رسوله، فما عليك إلّا أن تُبيّن لهم الحقيقة والواقع، وتوضّح لهم أين يقع الخطأ والانحراف.

وعلى الداعية أن يكون حليماً يتّسع صدره لما يُقال له، وحكيماً يُعالج ردود فعل الذين على غلطٍ بحكمةٍ وروية، ولا يضيق ذرعاً بما يسمع ممن ينتمون إلى الإسلام فقد مرت عليهم قرون يتوارثون مفاهيم على غلطٍ حتى أصبح الخطأ متراكباً، ونأتي لننزعه بيومٍ واحدٍ، أو بلقاءٍ واحدٍ حسبما يتصوّر بعض الدعاة، ولا بدّ بالواقع من مرور زمنٍ، وتكرر جلسات العلم حتى نستطيع نزع بعض ما ران على تلك القلوب.

* * *

وَاقِع المُسْلِمِينَ الاجْتِمَاعِي (٦)

إن البلدان التي دخل إليها الإسلام أثناء ضعف أهله سواء أكان عن طريق الدعوة أم عن طريق التجارة بقيت لدى سكانها بعد إسلامهم عادات جاهلية لم يستطيعوا التخلّص منها إما لرسوخها وعمق جذورها عندهم، وإما لأنهم لم يفهموا الإسلام تماماً نتيجة التخلّف السائد، مثل ستر بعض أجزاء الجسم لدى نساء سكان المناطق الحارة، وإرضاع الطفل أمام الرجال و. . . كما أن التخلّف في بقية أمصار العالم الإسلامي نتيجة الظروف التي مرّت على أهلها كما ألمحنا سابقاً قد جعلهم يتصرّفون تصرّفات غير مقبولةٍ وتُؤدّي إلى زيادة انتشار المرض مثل إلقاء الأوساخ في الطرقات وفي أي مكانٍ دون مراعاة لمصلحة الناس، إضافةً إلى عدم النظافة، والإهمال من نوع اللامبالاة، والخمول، كل هذا جعل الأعداء يربطون بين هذه الظاهرات والإسلام، وان كان الإسلام بريئاً منها وإنما السبب أهله وليس هو كنظام، غير أن الخصوم لا يريدون

أن يُفرّقوا بين الإسلام كمنهج وبين أهله الذين لم يأخذوا به ولم يتقيدوا بتعاليمه، وهذا يبدو في المخالفات العامة للأنظمة وربما أكثر ما يظهر في الموسم ، وقلّ أن يخلو منه بلد إسلامي ــ مع الأسف ــ .

وإذا كان هذا واجب المسلمين جميعاً وخاصةً أولئك الذين بيدهم مسؤولية التوعية إلا أن الدعاة من واجبهم الإسهام في هذا الموضوع عن طريق تنبيه المسؤولين ثم قيامهم أنفسهم بدورٍ فعّالٍ .

* * *

وَاقِع المُسْلِمِينَ الاقتِصَادي

الإسلام منهج لجوانب الحياة جميعها، ومنها الجانب الاقتصادي، وفي تطبيقه سعادة لكل من يأخذ به، ومع ذلك فإننا نرى التخلّف يسود الأمصار الإسلامية، وما ذلك إلّا لأنها تخلّت عن النظام الإسلامي، وأخذت تُطبّق أنظمةً مستوردةً، وأحياناً تُوجد نظاماً مُرقّعاً من هنا وهناك، فكان ذلك سبب تخلّفها وضياع أهلها.

لا يوجد في المجتمع الإسلامي أناس لا يعملون لأية حُجّةٍ من الحجج، لأن المسلم رجل مُنتج يُقدّم لبلده وأمته، ولا يعيش عالةً على غيره ما دام يستطيع العمل والإنتاج، وكل توانٍ في العمل سواء أكان من الفرد لإهماله أم من السلطة لأنها لم تُلاحق رعاياها على العمل أو لإيجاده لهم يعود بالضرر البالغ على الأمة، وسبق أن ذكرنا أن المسلم ملك أمته مع كامل حريته. ويجب أن ينتبه الدعاة إلى هذه الناحية ويُركّزوا عليها.

ولما أهمل المسلمون أمور دينهم، وانصرفوا عنها وُجدت البطالة، ووُجد أناس عالةً على الآخرين فافتقر المجتمع وضعفت الأمة، ولم يعد أولو الأمر يُفكّرون في أفراد رعيتهم، لا يهُمّهم عملوا أم لم يعملوا وأخذ الناس يزاول كل منهم ما يراه سواء أنتج أم أتلف أم أفسد فالأمر لا يُبالى ولا أحد يهتمّ به.

ترى في المجتمع الإسلامي أناساً تسألهم عن عملهم فيجيبون بكل فخرٍ واعتزازٍ ومعهم الحق فهم أفضل شرائح المجتمع، يقول الواحد منهم: طالب علمٍ، أي أنه منقطع للعلم الإسلامي، والأصل أن كل مسلمٍ عليه أن يعرف حداً أدنى من العلم، وهناك من يتعمّق ويطلب المزيد من المعرفة، غير أن هذا الطلب إنما هو في وقت فراغه وأيام راحته أما عدا ذلك فهو إنسان منتج، صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانوا منتجين وكذلك التابعون، فأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على غزارة علمه، ونهمه في الطلب كان عاملاً منتجاً، وكذا بعض أنبياء الله، عليهم السلام، فداوود كان يأكل من عمل يده. أما طالب العلم اليوم فمسلم غير مُنتج.

ومنهم من يقول: إنه لا حاجة له للعمل فإن لديه ما يكفيه من المال، ويُغنيه عن العمل، وقد فتحت الدنيا

أمام صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والمسلمين الأوائل وجاءتهم الغنائم، وسيق إليهم السبي من كل جهةٍ ولم يمنعهم هذا من الإنتاج رغم ما فيه من الكفاية والاستغناء، أما اليوم فهؤلاء عالة على المجتمع ولا يقدّمون للأمة شيئاً بل يستهلكون دون عطاءٍ، ومن غير فائدةٍ.

ومنهم الذين تفرّغوا للعب باسم تقوية الجسم والسهر على الصحة، بل منهم الذين امتهنوا تشجيع اللاعبين ومع ذلك ينالون نصيباً من الرزق مما يكفيهم ويزيد، بل تطوّر الأمر إلى أكثر فمنهم الذين اختصّوا بالتمثيل وما يتبعه من رقصٍ وغناءٍ وموسيقى، ومنهم من لا يجيد سوى التصفيق ومع هذا فهو من الموسيقيين وأهل الفن، وأقلّ ما نقول في هؤلاء: إنهم لا ينتجون بل يأخذون من أموال الشعب الكثير ويُتلفونه تبذيراً وإسرافاً، فما بالك فيمن يُفسد؟ وما هؤلاء بالقليل!!.

وأصبح هناك من اعتاد الجلوس في المقاهي في الليل والنهار يقضي وقته كله فيها، فهو إن لم يُسيء يصرف وقته سدىً. وهناك من اتخذ السرقة حرفةً أو السؤال في الطرقات، أو سحب الأموال من الناس خلسةً في أماكن الازدحام.

وكلما أُهمل الناس في تصرّفاتهم، وتُركوا لآرائهم،

تـارةً باسم الحـريـة وأخـرى بـاسم إشغـال النـاس بشؤونهم الخاصة ولفتهم عن التفكير في الأمور عامةً زاد الأمر سوءاً، وهـذا مـا تسيـر إليـه ـ مـع الأسف ـ أكثـر المجتمعـات الإسلامية.

إن مجتمعـاً من هذا النـوع لن يكون إلاَّ فقيـراً ما دام الإنتاج يقلّ فيه، وينصرف الناس عن العطاء من غير اهتمام من راعٍ.

وهناك ظاهرة أخرى يجب أن ينتبـه إليها الـدعاة وهي أنـه رغم الفقر الـظاهر على أمصـار العـالم الإسـلامي فـإن الرغبة ملحة لشراء الـذهب وتجميده، وهـذا لا يصحّ شـرعاً لأنه نوع من الكنـز، ولا يصحّ بـأي مقياسٍ لأن هـذه أموال مُعطّلة فـالنـاس الفقـراء والأغنيـاء على حـدٍ سـواء تلهث نساؤهم وراء شراء الذهب ووضعه في صناديق، وقد يلبسنه مراتٍ قليلة مباهاةً وتفاخراً والويـل للرجل الفقيـر إن لم يُلب جزءاً كبيراً من طلبات زوجه التي تريد أن تُساير بنات جنسها في مجتمعهـا، وربما لا يستـطيع الـزواج أصلاً، وإذا أصـرّ على رأيه وامتنع ربما وقع في مصيبة أشدّ خطراً وأصعب من المال، وهذا مـا يزيـد المجتمع الإسـلامي فقراً وتخلّفـاً لذا يجب التأكيد عليها والتوجيه نحو الاعتدال.

وربمـا قـال أحـدهم إن مـا يستشـري في المجتمع

الإسـلامي من هذه الـظاهـرات هـو نفسـه مـا يستشـري في المجتمعات الحضاريـة الأخرى فـأقول: لا، ليس إلى هـذه الدرجة المتدنية من السـوء فليس هناك من امـرأةٍ واحدةٍ في المجتمعات المادية يمكنها أن تُجمّـد من الذهب مـا تُجمّده عـامة نسـاء عالمنـا الإسـلامي. وكـذلـك فليس هنـاك تلك الـدرجـات من الانصـراف إلـى اللعب، والجـلوس في المقـاهي، وتبذيـر أهل الفنّ، والارتمـاء في هـذه المهنـة، وتسليط الأضواء على أصحابها، وتمجيدهم، حتى ليمكننـا أن نقـول: إن درجـة ارتقـاء الأمـة وانحـدارهـا لتُعـرف من الأشخاص الذين تُظهرهم وسـائل إعـلامها وتُمجّـدهم، فإن كانت تُظهـر الرجـال المفكّرين، والعلمـاء، والمنتجين فهي في صعـودٍ وارتقاءٍ، وإن كـانت تُبرز العـابثين، والـلاهين، والـلاعبين فهي في انحدارٍ وتراجـعٍ مهمـا لبست من ثيـاب الحضارة وتزيّت بزي التقدّم.

إن المجتمـع الإسلامي مجتمـع متوازن لا طبقيـة فيه ولا يعتـرف على الطبقـات، يوجـد فيه أغنيـاء وفقـراء ولكن لا يـوجـد بينهمـا ذلـك التفـاوت الكبيـر الـذي نجده في المجتمعـات الماديـة لأن الغني يُخرج زكـاة مالـه، ويتقرّب إلى الله بـالصدقـات بشكـلٍ دائمٍ، ولا يُسمـح لـه بـالـربـا والاحتكار اللذين هما أكبر مصدرٍ لزيادة المـال بشكلٍ غيـر

طبيعيٍ . والمجتمع الإسلامي لا يسود بين أفراده الحقد كبقية المجتمعات المادية نتيجة ما يقدّمه الغني للفقير من أموال الزكاة والصدقة والعطف. والمجتمع الإسلامي مجتمع التعاطف والرحمة، فهو بذلك يختلف عن غيره من المجتمعات نتيجة الأوامر التشريعية التي تحثّ على عيادة المريض، وصلة الرحم، ورعاية الجار، والمحافظة على حقوق الطريق، واحترام كرامة الإنسان وإننا لنلاحظ أن الغني لا يُعطي الزكاة إلى الفقير مُباشرةً، وتكون له عليه المنّة والأيادي البيضاء فيمكنه أن يفرض احترامه عليه أو يستغلّه في بعض الجوانب، أو يشعر الفقير أمامه بالذلّ والحاجة، وإنما تُدفع الزكاة إلى السلطة المسؤولة وهي تُعطيها للفقير، كما تدفع الرواتب للموظفين، فليس لأحدٍ فضل على الآخر، ولا يُعرف من أي مالٍ أخذ الفقير، رغم أنه حقّ له، ولا منّة لأحدٍ عليه، وأظنّ أن الدعاة يُذكّرون بهذا الموضوع ويُلحّون عليه باستمرارٍ، غير أنهم لا ينظرون إلى المجتمع الإسلامي النظرة الشاملة إذ ترسّخت عندهم فكرة الإقليمية فيتحدّث كل واحدٍ عن منطقته، وبذا تتعمّق فكرة التجزئة التي يُهدّمها الإسلام ولا يعترف بها ، وأخذ المجتمع يفقد خاصته، والناس يبتعدون عن عقيدتهم حتى غدت أمصار من العالم الإسلامي بيئةً فقيرةً وتُعدّ أقلّ أجزاء

العالم بالنسبة إلى دخل الفرد فيها على حين أن هناك أمصاراً أخرى تُعدّ من أكثر مناطق الدنيا دخلاً لأفرادها، وليس هناك بينها أي تعاونٍ أو تكافل. وترى أمصاراً من بلاد المسلمين لا تحصل على الدراهم المعدودة لتعمل على تنمية أقاليمها وفي الوقت نفسه تجد بلداناً لا تعرف كيف تنفق الأموال لكثرتها فيلعب الرعاة بها كما يلهو الأطفال بالتراب، وينغمس أزلامهم في ملذاتهم بتبذيرها بصورٍ بشعةٍ لا تلبث أن تصبح أحاديث العالم لهول البذخ. وتجد أكداساً من بقايا الطعام تُلقى مع القاذورات عند أقوامٍ، وهي تكفي لإعاشة جيشٍ، على حين ترى جماعات مسلمةً تتمنّى كسرة الخبز ولا تحصل عليها، وترى فيها أفضل وأشهى وجبة طعام، وتُوجد بُطون مُتخمة بأنواع الأطعمة والأشربة تكاد تتقيأ، وأخرى إلى جانبها بطون مطوية تتلوى وتنظر بعينٍ حزينةٍ وقلبٍ منكسرٍ كئيبٍ. والدعاة وجوم لا تكاد تعرف ماذا يجري لقصر النظر، وضيق ساحة الرؤية، والجهل بشعوب العالم الإسلامي، بل وبمواطنهم، وبمشكلاتهم، وما يجري فيها، وتُحدّق بالقرب منها فتبصر غير أنها تخشى ذئاب الرعاة فتسكت على مضضٍ ثم تلفّها أحداثها الخاصة الكثيرة ومُشكلاتها اليومية المتتابعة.

على الدعاة أن يتعرّفوا على مواطن الشعوب

الإسلامية بصورةٍ كاملةٍ، وأن يعـرفوا سكـانها، ومُشكـلاتهم وما يُعانـون، وأن يدرسـوا أمورهـا بقلبٍ واعٍ وعينٍ مبصرةٍ، وأن ينقلوا هـذه المعلومات إلى الـوسط الذي يعيشـون فيه، ويُـطالبون الـراعي والـرعيـة في المسـاهمـة الفعّـالـة بحـلّ معضـلات إخـوانهم، وهـذا مـا يجعلهم يُؤدّون واجبـهم ويكبرون في أعين شعبهم، ويكونون دُعاةً بحقٍّ.

* * *

وَاقع المُسْلِمين الفِكْرِيّ

أفكـار المسلمين ومفـاهيمهم واحـدة تنبـع كلهـا من عقيدتهم، وقد أخذت بعض المفاهيم الغريبة تـدخل عليهم من الأمم الأخرى نتيجة الاحتكاك بها والبعـد عن الإسلام، وكلمـا زاد هذا البعـد زاد تسرّب الغـريب واقتحام الـدخيـل حتى كـان الاستعمـار الصليبـي الحـديث الـذي جثـا على صـدر الأمة ردحـاً من الـزمن فـأنهكهـا فخـرجت من تحتـه منهـوكة القـوى مشتتة الهـوى لا تكاد تُبصـر طريقهـا تتلمّس الـدرب بجوارحهـا، وعقلها، وهـواها فمن سـار بجـوارحـه انطلق معها، ومن مشى بهواه طغى عليه، ومن تحـرّك بعقله هُدي، ومن قبع في مكان لا يتحرك أصـابه الإحبـاط وحلّت بـه الهزيمـة النفسيـة وخـرج يلهث وراء الـذين أخنعـوه من المستعمرين الصليبيين ومن سلّطوهم عليه، تبلبلت الأفكـار وتشتّت المفاهيم وأخذ كل يبحث في الدرب الذي سار فيـه يُعبّـده، ويُزينـه، ويُزخـرفه لـلآخرين ليتبعـوه وليسيروا معـه لتكون له الكلمة الأولى.

دخلت على المسلمين أفكار الوطنية، والقومية، والاشتراكية، والعلمانية، والماسونية، وهي على تعددها ليست مُتنافرةً وإنما ذات هدفٍ واحد، وقد أتت على مراحل فقد دخلت الوطنية لتُوحّد الناس ـ حسب رأي واضعيها ضمن إطار إقليمٍ واحدٍ أو بالأحرى لتحلّ محلّ الرابطة الإسلامية، وربما كان السكان في إقليمٍ واحدٍ على تجانسٍ نسبيٍ فلم يظهر أثر الوطنية الضمني الذي تهدف إليه في إبعاد الناس عن الإسلام، ثم جاءت القومية كمرحلةٍ ثانيةٍ لتجمع بين شعبٍ واحدٍ على أساس العصبية القومية، ولتحلّ محلّ الإسلام الذي يُوحّد بين القلوب، ويجمع بين النفوس، ويربط بين المسلمين برابطٍ قويٍ، ولا يمنع أن تنتشر في هذه المرحلة أيضاً أو التي سابقتها الماسونية على أساس المصلحة أو تبادل المنافع بين الذين ينضوون تحت هذا المُسمّى لذا نُلاحظ أن الذين ارتقوا إنما كانوا عن هذه الطريق، وأن الذين كانوا يُريدون المحافظة على مراكزهم التي وصلوا إليها كانوا يُهرعون للانضمام إلى هذه المجموعة الخبيثة، وربما عرف بعضهم الهدف البعيد لها، وكان بعضهم الآخر لم يعرف سوى أنها تُؤمّن له المصلحة.

ويمكن لفردٍ واحدٍ أن يحمل هذه الأفكار إذ أنها واحدة، غير الوطنية بمفهومها الصحيح الذي هو الإخلاص

للبلاد والأمة، ولكنهم يقصدون بها هم: بديل الإسلام، فهي بهذا المعنى على الخط نفسه وأصحابها غير صادقين لبلدانهم وإنما لمصالحهم الذاتية فقط.

ثم جاءت مرحلة أخرى حيث يكون الناس قد ابتعدوا عن الفكرة الإسلامية فتأتي الاشتراكية لتحلّ نظاماً اقتصادياً محلّ النظام الإسلامي صراحةً ويمكن جرّ العامة من الفقراء الجهلة باسم تحقيق مبدأ المساواة بين الجميع، والوصول إلى حقوق لأولئك الأناس الفقراء المتعبين الكادحين، ولم يتعرّض المنادون بهذا المذهب للإسلام، ولكنهم في قولهم النظام الاشتراكي هو النظام الصحيح للاقتصاد فإنما يعنون أن غيره غير صحيح، والإسلام لا شك عندهم ليس بنظام أصلاً وفيه الظلم، وذلك لجهلهم وحقدهم، وعداوتهم للإسلام الآتية من أعدائهم الذين فكّروا بهذا النظام وسطّروه.

وبعد هذه المرحلة يمكن أن يكون المجتمع قد اهتزّ إسلامياً ونخرت فيه الأهواء، والمصالح، والضعف، والهزيمة النفسية فيمكن طرح فكرة العلمانية أي البعد عن أي دينٍ، وإذا نُزعت العقيدة من نفوس الناس يمكن جرّهم إلى أي ناحيةٍ أو إدخال عقيدةٍ جديدةٍ مكان الأولى، ولا يقصد منها إدخال الرجال في دينٍ آخر إذ لم يصلوا إلى

المستوى الذي يُؤهّلهم لأن يكونوا من شعب الله المختار وإنما إفساد العقيدة وإحلال الإلحاد وهذا ما تسعى إليه الماسونية التي تضمّ مختلف أصحاب الديانات والعقائد غير أن اليهود هم الذين يُحرّكونها، بل كثيراً ما كانوا السبب في طرح الأفكار التي من شأنها إضعاف العقيدة الإسلامية من نفوس أصحابها، ومنها هذه الأفكار تلك التي ألمحنا لها.

وهناك معاول هدمٍ أخرى تُساعد تلك المعاول المتمثّلة في الأفكار على تقويض الأفكار التي لا ترضى عنها، وهي غالباً الأفكار الإسلامية، وهذه المعاول هي الفرق الضالة، والطوائف المنحرفة؛ والطرق، والتي وجد معظمها تحت تأثير اليهود والمجوس، وقد سخّروا الصليبية أيضاً في عملهم، وتضافرت الجهود حتى حوصر الإسلام من كل جهةٍ وأخذت معاول الهدم من الداخل تعمل عملها، وقد استطاعت أن تعمل وتُهدّم لأن الداخل قد أخذ بعض الأفكار الدخيلة وتجاوب فانقسم وتفرّق أمره.

قام المسلمون يعملون على وحدة صفّهم، ويُحاولون أن يُوحّدوا أفكارهم، ويظنّون أن الوحدة في ذلك، والواقع غير هذا، فإن الأفكار واحدة، والمبادىء واحدة ولا خلاف من هذا الجانب أبداً فالكتاب والسنّة تجمع الأمة على أنهما المصدران الأساسيان للعمل الإسلامي ولا يشذّ عن ذلك

مسلم واحد، قد تختلف الاجتهادات في بعض النواحي الفرعية أما الأصول فهي واحدة وثابتة، ولا مجال للخلاف فيها إلَّا إذا أراد أحدهم أن يشذّ في اجتهاده ويُحمّل النصوص ما لا تحمل، وهو شاذ، ولا يُبنى على الشاذ.

وأما الخلافات التي نراها قائمة بين المسلمين أو الذين يعدّون أنفسهم دعاةً فإنما تعود إلى أن بعضهم يرغب في المنصب، وسار في هذه الطريق لهذا الغرض، حتى عُرف باتجاهه الطيب، وصُنّف بين العاملين في الحقل الإسلامي، وقد يكون قد وصل إلى مكانٍ بارزٍ في هذا الميدان غير أن ما في نفسه شيئاً آخر، وقد طال عليه الوقت للوصول ولم يصل لذا أخذ يُعالج الأمور بشكلٍ آخر: **﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظٍ عظيمٍ﴾**[1]. فيجب على الدعاة أن يُفهموا هؤلاء أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، وما يحصل على ذلك ويناله إلَّا الصابرون، والصابرون هم الذين يعملون لله لا للوصول إلى المنصب ولا إلى القمة، وأن عليهم العمل لا الوصول، والأجر والثواب على العمل، أما من ينال ما يعمل من أجله فقد حقّق جزاءه في الدنيا وليس له في الآخرة شيء، والمشكل أن الأتباع يسيرون

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٩.

وراء هؤلاء دون وعيٍ ولا إدراكٍ، لأن قادتهم يُفكّرون لهم، ويعملون لهم، ويسمعــون عنهم، وليس عليهم إلاَّ الانقيـاد والامتثال والسير وراء الكبيـر، كمـا يمشي القـطيع وراء الراعي، وبذا يضيع العمل، وتتفرّق الأمة، وتتبعثر الجهود.

ومما يُفرّق الآراء، ويُشتّت الأمة، ويُجزّىء العمل أن بعضهم يـريد أن يُحـطم خصمه ولـو على أيدي الشيـطان، فيُلقي بقوته التي لا تزال غضّةً قبل أن يشتدّ عودها ومن غيـر استعـدادٍ، ولا تخطيطٍ ويُلقي بـإخوانـه أمام العـدو الحـاقـد المستعـدّ ليصعـد ويـرتقي إلى أعلى على جثث الآخـرين فالنتيجة معـروفة، وعنـدها يقـول: إنه لا طـاقة لنـا بالـطغاة وأعـوانهم لذا لا مـانع من التحـالف مع أيٍ كـان ولـو كـان كافراً... فيمشي إلى الظالمين يتحالف معهم على ظالمين آخرين وفي الحقيقة لم يتحالف وإنما ألقى بنفسه وبإخـوانه بـأيدي أعـداء الله... فمـا النتيجـة؟ إنهـا معـروفـة. فعلى الدعاة أن يُنبهوا أنه لا يستعان بظالمٍ على ظالمٍ، ولا بكافرٍ على مشـركٍ، وأن الاستعــداد واجب، وأن العبـرة ليست بالكثرة وإنما بالإيمـان: **﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئـةً كثيرةً بـإذن الله﴾**[1]، ولا يصحّ لمسلمٍ أن يقـول: **﴿لا طـاقـة لنـا**

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٤٩.

اليوم بجالوت وجنوده﴾[1]، وإنما البذل والاختبار.

ومما يُضعف المسلمين ويُشتّت آراءهم التعصّب كل لحركته حتى ليحول بعضهم دون تعليم من لا ينضوون معه، ودون تأمين الإقامة لهم، ويعمل على قطع رزقهم ولو كان يلتقي معهم بالفكر وأخوة الإسلام وربما كان معه قبل مدة من الاختلاف في وجهات النظر أو نحو ذلك.

هذه الأمور رغم أن المسلمين جميعاً يتفقون عليها، ولا يختلف اثنان فيها، ويعرفها الصغير والكبير، ويقول بها الخاصة من العاملين في الحقل الإسلامي والعاديون أيضاً، ويلتقي عليها المسلمون جميعاً ويعدّونها من الأمور المسلّم بها، إلاَّ أن الذين يريدون الحياة الدنيا يشذّون عملياً في هذه التصرّفات، ويؤمنون بها فكرياً ونظرياً، فالمهم إذن تطبيق ما نُؤمن به لا أن نُنادي به فقط، ونقول: إننا نحمل أفكاراً إسلاميةً. فعلى الدعاة أن ينتبهوا إلى هذا، ويسعون في تطبيق كل ما يُنادون به، وإلاّ ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، وحبط عملهم، وتجزأت جماعتهم، وانقسمت أمتهم.

* * *

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٤٩.

وَاقِع المُسْلِمِين السِّيَاسِي

قسّم المستعمرون الصليبيون بلاد المسلمين، عندما سيطروا عليها، إلى وحداتٍ سياسيةٍ كما يحلو لهم، فكان بعضها صغيراً والآخر كبيراً، بعضها يشمل أعداداً كثيرةً من السكان، وبعضها لا يضمّ إلاّ قلّةً، بعضها ذات إمكاناتٍ زراعيةٍ، وبعضها الآخر يسود أراضيه الجدب، يعمّ فيها القحط لقلّة المياه وسوء التربة، وتذخر أرض بعضها بالثروات المعدنية.

وجاءت فكرة الوطنية فعمّقت جذور هذا التقسيم ودخلت فكرة القومية فرسّخت هذه التجزئة، وتفشّت الرأسمالية والاشتراكية فتبعثرت هذه الوحدات ذات اليمين وذات الشمال، بل إن الشعب في داخل كل وحدةٍ افترق فسار فريق مُشرقاً وغرّب آخر، ونمت الطبقية في المجتمع الإسلامي الذي لا يعرفها فغدا العمال مجموعةً، وأصحاب العمل أُخرى، والفلاحون ثالثةً، والملاّك رابعةً، وأصبح

أصحاب كل مهنةٍ فئةً، وهكذا تمزّقت أوصال الجسم الواحد.

وتسرّبت العلمانية تهزّ الجذور لتقتلع العقيدة وتُلقي الجثث هامدةً لا حياة فيها، ويمكن عندها للماسونية أن تجرّها إلى حيث تريد، وتشبّث المسلمون الملتزمون أمام هذه التيارات وصعُب على العواصف مهما هاجت أن تحرّكهم، حتى تسلّل إلى صفوفهم أصحاب المصالح يُحاولون امتطاءهم، وزُرعت بينهم فسائل غريبة هُجّنت حتى قويت ونمت ووجدت المناخ الصالح فامتدّت فروعها وتشابكت غصونها، وركبت التيار فألقى بها على القمة، وأخذت تُحالف طُغاةً، وتُنسّق مع ظالمين، فضاع الجهد، وانقسم المسلمون الملتزمون وهم الذين كانوا قد بقوا في الساحة، فكان أن قلّ شأن الذين حرصوا على التميز بشخصيتهم الإسلامية لأن أعداداً قد تبعت أصحاب المصالح عصبيةً، أو لعدم وضوح الرؤية عندها، أو إحساناً للظنّ في الذين مشوا معهم مدةً ضمن عملٍ واحدٍ.

إن على الدعاة بعد هذه المقدمة البسيطة ألّا يجرّوا أنفسهم ومن معهم إلى معركةٍ غير مُتكافئةٍ لم يستعدّوا لها بعد، فالأعداء يريدون دائماً أن يُجهزوا على المسلمين قبل أن يُهيّئوا أمرهم، ويحرصون الحرص الشديد أن يأخذوهم

على حين غرّةٍ، ويُفضّلون أن يكون المسلمون هم البادئـون بالمعركة.أو أن يقوموا بعملٍ يجـرّهم إلى الفتـك بهم، فـإن لم يجدوا اتهموهم تهمةً أو رموهم ليجدوا لهم مُبرّراً للبطش بهم.

إن على الدعاة ألا يحاولوا الصـدام مع السلطة، فـإن معـظم أهلِها قـد رضي عنهـا الأعـداء من أصحـاب النفـوذ أو هم الذين وضعوا رجالها بـالفعل، وذلـك قبل الاستعـداد التـام، وعليهم الحذر، كـل الحذر. والأفضـل الدعـاء لهم بالصلاح والتقـوى والخير، فـإن صلاح الحـاكم فيه صـلاح لـلأمة جميعـاً كما أن سـوءه يُصيب الأمة كلهـا. ومـع هـذا الـدعاء لا يصـحّ الركـون لهم، ولا التحـالف مـع الـطغـاة، ولا ادّعاء التنسيق، فالسلطات أقـوى من الأفراد، وأقـدر من الجماعات، وأكثر بثّاً للعيـون، وأشدّ مكـراً، ثم إن الأعداء جميعـاً يدعمـونها على حين أن الإسـلام محـاصـر من قبـل خصومه، والأرض تتكـالب عليه. وإن دعـوى التحالف مـع الـطغاة أو التنسيق ليس إلّا محـاولـةً من الأعـداء لاستغـلال المسلمين والكيد لهم، وليست من المسلمين إلا ارتماءً في أحضـان الخصم وكل التبـريرات مـا هي إلّا تغطيـة للموقف المشين، وستراً لنفاق الـذين قامـوا به، ودعـوا له، وأقـدموا عليه.

إن على الدعاة أن يكونوا فوق العصبيات فلا يتحدّثوا عن مصرٍ من الأمصار، ولا مدينةٍ من المدن، ولا عن حركةٍ من الحركات، لأن الحساسيات قد أصبحت دقيقةً في هذه الأيام، وإنما عليهم أن يُحاربوا العصبيات، ويُعلنوا أن الإسلام يُحاربها دون ضرب أمثلةٍ أو ذكر مجموعةٍ.

وعلى الدعاة ألّا يتعرّضوا لأخطاء الرجال أو الجماعات، إذا غدت بعض الجماعات تحسب كل صيحةٍ عليها، وإنما عليهم أن يُبيّنوا الأصل فقط دون البحث فيما يقع ، فالعاقل من يتّعظ ، ولا خير فيمن لا يتّعظ، وقد لا يُهمّه ما تقول ولو وضعت النور بين يديه لا يقبل إلّا من يُملى عليه من جماعته.

إن على الدعاة أن يتكلّموا في البناء الإسلامي دون الحديث عن عوامل الهدم الداخلية، والمخالفات والسلبيات التي تقوم بها الحركات الإسلامية أحياناً أو تقع فيها، سواء أكان ذلك عن غفلةٍ، أو عن قصدٍ، ولأعطي مثلاً: أريد أن أتحدث عن التحالف مع الأعداء أن يصحّ أو لا يصحّ؟ فأذكر ما فعله رسول الله مع يهودٍ من موادعةٍ، ثم طرده بعضهم، وهم بنو قينقاع، ثم طرده لبعضهم، وهم بنو النضير، ثم لقتل من بقي منهم، وهم بنو قريظة عندما نقضوا العهد ، واستنتج أنه يُمكن التحالف عندما

يكـون المسلمـون هم أصحـاب الكلمـة الأولـى، وهم أصحـاب القوة، وهم أصحـاب الـرأي والحـلّ والعقـد في الموضـوع، أمـا أن يكـونـوا تبعـاً يـأتمـرون بـأمـر الـطغـاة فلا يصحّ، ولا يرضى الإسلام لأتباعه أن يكونوا هم الأدنون يتحرّكون حسب إشارة من لا يقيمـون للإسلام وزناً، ثم آخذ أمثلةً من تطبيق صحابـة رسول الله، صلى الله عليـه وسلم، رضوان الله عنهم لهذه الفكـرة من خلال حـربهم مع أعـداء الله، ثم أصل إلى النتيجة فأُعطيهـا بشكلٍ حـاسمٍ، وأجزم بالأمر، ويكون الرأي الإسلامي الواضـح بصورةٍ حازمةٍ دون ذكـر أي تحالفٍ أو التعـرّض لأية حـركةٍ. ويجب ألاّ يكـون هـذا بمناسبـة أمـر تحـالفٍ قد تمّ، لأن هـذا يُثير أصحـابه ويتعصّبـون لرأيهم، ويـرفضون كـل رأي سـواه، ولـو كـان إسلامياً حماقةً وتعصّباً.

***

الدّعـاة

إذا كنـا قد تعـرّضنـا لمهمـة الـدعـاة بصـورةٍ سـريعـة ومُقتضبةٍ، فمن هم أولئك الدعاة الذين عليهم أن يُؤدّوا هذا الـدور؟ هل كـل مسلمٍ داعيـة أم أن هـذه المُهمّـة مُـرتبـطة بجمـاعةٍ دون أخـرى؟ الـواقـع أن كـل مسلمٍ عليـه واجب الدعوة بالمقدار الذي هو مهيّـأ له، ولمـا كان على المسلم أن يعـرف حداً أدنى من أمـور دينـه، فعلى كـل فردٍ إذن ينتمي إلى هـذا الدين أن يُعلّم مـا يعرفـه، يُعلّم أبناءه، من يلتقي بهم وخاصةً إن كـانوا دونه في الإمكـانات، وبهـذا المفهوم فكل مسلمٍ هو داعيةٍ.

غير أنه أصبح يُفهم من كلمةٍ داعيـة اليوم هـو ذلـك الإنسـان الذي يبـذل جهـده للدعـوة في سبيـل الله، وتعليم المسلمين وغيـرهم أمـور دينهم، وخـاصـةً في هـذا الـوقت الذي كثر فيه الجهل، وقلّ فيه العارفون لأمور دينهم بشكلٍ جيـدٍ، وزاد عـدد الـذين يُقبلون على الإسـلام أو يُـريـدون التعرّف على حقيقته ممن يعرفها.

والداعية أوسع وسيلةٍ للإعلام وأصدقها، إذ يطّلع على ما يحدث في العالم عامةً وفي الأمصار الإسلامية، وينقلها إلى الناس عن طريق الخطب، والدروس التي يُلقيها، ويتقبّلها السامعون لثقتهم بقائلها، ونتيجة هذه الثقة يستطيع التأثير عليهم، بل يمكنه تحريكهم إلى الوجهة التي تقتضيها مصلحة الإسلام والمسلمين، وهذا ما لا تستطيع عمله وسيلة أُخرى، حيث لا يثق بها إلّا من يخضع لتأثيرها، أما بقية الناس فقلّما أن تكون لهم ثقة مطلقة بأية وسيلةٍ، كما أنه من الصعب التأثير على الناس وتحريكهم كما يفعل الداعية المسلم.

والداعية أكبر ناصحٍ للخاصة وأفضل مرشدٍ للعامة، فهو يعرف مطالب الناس باحتكاكه بهم، فيرسم لهم الطريق ويدعوهم إلى ما يجب عمله، وينقل ذلك إلى المسؤولين ويُبدي لهم رأيه ناصحاً ويدعوهم للسير بما أمر الله، ويُبيّن الأحكام، ويدعو لهم بالفلاح والصلاح، فإن ساروا على منهج الله رشدوا، وإن غفلوا ضلّوا، وبذا فهو الصلة بين الراعي والرعية والناصح لكلا الفريقين.

ولكن ما هي الصفات التي يجب أن يتصف بها الدعاة.

١ ــ الإيمان العميق بكل ما يدعو له التصديق التام بكل ما جاء به الإسلام.

٢ ــ التطبيق الكامل لما ينادي به.

٣ ــ المعرفة الكافية لما يدعو له، والمتابعة لتحصيل المزيد منها.

٤ ــ التعرّف على ما يجري في العالم عامة، وفي العالم خاصة، ومواطن المسلمين ومشكلاتهم، وما يُخطّط لهم، وأن تكون معرفته وثقافته واسعةً على مستوى العصر الذي يعيش فيه.

٥ ــ التصرف الصحيح في حياته الاجتماعية، فلا يرفع صوته، ولا يتكبّر، ويُخالط الناس، ويصبر على أذاهم، ويتواضع لهم، ويُشفق عليهم، ويُواسيهم، ويُشاركهم آلامهم، وأفراحهم، ويعود مرضاهم، ويُسعفهم قدر استطاعته، ولا يتعصّب، بل يجب ألّا يعرف العصبية ولا تصل إلى أفكاره، ويتعهّد ذويه وجيرانه، ويدعو الناس ويُكرمهم، ويزورهم، وأن يترفع عن الصغائر.

٦ ــ الاستقامة، وهي ماتجعل الناس يحبونه، فيستطيع عندها التأثير عليهم، ويمكنه بعدها أداء مهمته في الحياة، والتي يرى أنها واجبة عليه إذ كلّفه بها ربّه.

ومن محبة الناس أن يزهد بما في أيديهم ، إذ جُبل كثير من الناس على حبّ الدنيا، وجمع المال، فمن نازعهم على شيءٍ من ذلك أو نافسهم كرهوه ورجوا الخلاص منه، ومن تركه لهم أحبوه وتعلّقوا به.

٧ ــ الجرأة في الحق: يقول ما يُؤمن به شريطة أن يكون بلينٍ ورفق، وأسلوب هادىء مُتّزنٍ ليس فيه هجوم ولا تعريض، لا يُحابي أحداً، ولا يخاف في الله لومة لائم.

٨ ــ القناعة والرضا بما قسم الله له من المال، والزوج، والولد، والمركز، فلا تستعبده المادة، ولا يستذلّه الجنس، ولا يتحكّم به المنصب.

٩ ــ صاحب شخصية: فلا يتزلّف لأحد مهما علا شأنه، ولا يسعى وراء مصلحة، ولا يسأل الناس شيئاً، وإن استطاع ألّا يسأل من أين الطريق؟ فهو الأفضل.

* * *

الخَاتِمَة

وأخيراً نرجو من الله أن يكون الدعاة على المستوى المطلوب منهم لأداء مُهمّتهم الملقاة على عاتقهم، وهي مسؤولية ضخمة، وأمانة عظيمة، وأن يكونوا قد استفادوا من هذه الملاحظات التي توصّلت إليها من تجاربي في الحياة والسنوات الطويلة التي عشتها في هذه الدنيا.

كما نرجو أن نتقيّد بالفكر الإسلامي، ولا نحيّد عنه أبداً، وألّا نتعصّب لرأينا وأن نعود إلى الحق مجرد أن نعرفه أو يصل إلى أسماعنا بغضّ النظر عن رأي قادتنا وعلمائنا فقد لا ينتبهوا إلى الحقّ، وقد يغفلون عنه، وهم عند حسن ظننا ولكنهم غير معصومين. وقدوتهم وقدوتنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم صحبه الكرام. وإن الرجوع إلى الحقّ خير من التمادي في الباطل.

إننا لو رجعنا إلى الحقّ، وتركنا التعصّب، وصدقنا النيّة، وأخلصنا العمل للّه، فلن نختلف، وسينصرنا الله

حسب ما وعدنا في كتابه الكريم: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[1]. وكما وعدنا تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[2].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) سورة الحج: الآيتان ٤٠ و ٤١.

(٢) سورة النور: الآية ٥٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

●●●

كتب للمؤلف

من منشورات المكتب الإسلامي

١ ـ التخلف
٢ ـ التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي
٣ ـ الجماعات البدائية
٤ ـ العالم الإسلامي
٥ ـ العالم الإسلامي (المنطقة العربية ـ بلاد الشام والعراق)
٦ ـ العالم الإسلامي (المنطقة العربية ـ وادي النيل)
٧ ـ العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه
٨ ـ القرامطة
٩ ـ المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية
١٠ ـ المسلمون تحت السيطرة الشيوعية
١١ ـ مع الهجرة إلى الحبشة
١٢ ـ المغالطات وأثرها في الأمة
١٣ ـ المنطلق الأساسي في التاريخ الإسلامي
١٤ ـ سلسلة بناة دولة الإسلام
١٥ ـ اقتصاديات العالم الإسلامي

التاريخ الإسلامي

١ ـ قبل البعثة
٢ ـ السيـرة
٣ ـ الخلفاء الراشدون
٤ ـ العهد الأموي
٥ ـ العهد العباسي (١)
٦ ـ العهد العباسي (٢)
٧ ـ العهـد المملوكي
٨ ـ العهد العثماني
٩ ـ مفاهيم حول الحكم الإسـلامـي

التاريخ الإسلامي المعاصر

١٠ ـ بـلاد الشـام
١١ ـ بـلاد العـراق
١٢ ـ جزيرة العرب
١٣ ـ وادي النيل
١٤ ـ بلاد المغرب العربـي
١٥ ـ غربـي أفريقية
١٦ ـ وسط وشرقي إفريقية
١٧ ـ تـركـيـا
١٨ ـ إيـران وأفغـانستان
١٩ ـ بـلاد الهنـد
٢٠ ـ جنوب شرقي أسيا
٢١ ـ المسلمون في الأمبراطورية الـروسـيـة
٢٢ ـ الأقليات المسلمة في العالم

مواطن الشعوب الإسلامية

(في آسيا)

١ ــ تركستان الغربية
٢ ــ تركستان الشرقية
٣ ــ قفقاسيا
٤ ــ باكستان
٥ ــ أندونيسيا
٦ ــ **اتحاد ماليزيا**
٧ ــ فطاني
٨ ــ المسلمون في قبرص
٩ ــ المسلمون في الفيليبين ودولة مورو
١٠ ــ جزر المالديف
١١ ــ أفغانستان
١٢ ــ تركية
١٣ ــ إيران
١٤ ــ شبه جزيرة العرب
ــ عسير
ــ نجد
ــ الحجاز
ــ البحرين والإحساء والكويت وقطر
١٥ ــ المسلمون في الهند الصينية
١٦ ــ خراسان

(في إفريقية)

١ ــ غينيا
٢ ــ نيجيريا
٣ ــ الصومال
٤ ــ موريتانيا
٥ ــ أرتيرية والحبشة
٦ ــ تشاد
٧ ــ تانزانيا
٨ ــ السنغال
٩ ــ أوغندة
١٠ ــ ليبيا
١١ ــ السودان
١٢ ــ جزائر القُمُر
١٣ ــ المسلمون في بورندي
١٤ ــ مالي
١٥ ــ سيراليون